

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة

شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء - القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

النور

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقناً في أول كل شهر وفي نصف

السنة الثانية

١٥ ربيع أول سنة ١٣٥٧ - ١٥ مايو سنة ١٩٣٨

العدد ٣٢

من أحسن القصص



فهرس العدد

صفحة	
٤٠٢	ميمى
٤٠٧	أفصوصة مصرية
٤١١	شجرة الكمثرى المحورة .
٤١٩	سوسن النورية
٤٣٠	أفصوصة مصرية
٤٣٧	ابن الحب
٤٤١	أفصوصة من التاريخ الاسلامى .
	الملك والدرويش
	غيرة
	حاجى بابا فى الشكرا
	فيلم واڤريد ستاهاشيز
	للكاتب السويسرى سولومون جيسار
	تأليف جينز موير
	بقلم الأستاذ إبراهيم عبد الغادر المازنى
	بقلم الأستاذ محمد كامل دجاج
	بقلم الأستاذ محمود بك خيرت
	بقلم الأستاذ على الطنطاوى
	بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة
	بقلم محمد عبد الفتاح محمد
	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

مصيبي

اقصوصة مصريه
لأستاذ ابراهيم عبدالقادر المازني

الصيدلة صبراً وحلماً وتساعداً وحكمة
ومقداراً من « الحصانة » تمنع أن
يفتر المرء بالظواهر . وتلك بعض
ثمار المعرفة التي اكتسبها في ذلك
المرض الذي يسميه الناس :
« الصيدلية » ولا يخطر لهم أنه
يمكن أن يرى فيها غير العقاقير

وخطر لطلبة والقطار ينهب به

الأرض أن من الخافة أن يتوهم الآباء أن عرض
بناتهم على الشواطئ بمجل يتزوجهن . ورجه
القطار وهو يفكر في ذلك فكأنما رج ما في رأسه
أيضاً فماد يسأل نفسه : « ولكن هل هم بمرضون
بناتهم ليتزوجوهن ؟ أليس الأصح أن يقول إن تيار
الزمن جرفهم ، وإنهم لم يستطيعوا مقاومتها ، فهم
لا يعنون شيئاً ولا يريدون أمراً ، وإنما ينزلون على
حكم التيار ؟ على أن المهم على كل حال أن هذا
المرض يزيع العين ، والرجل يستطيع بعد أن يرى
كل هذا الجمال المتنوع المحشود أن يروض نفسه على
الصبر على طمام واحد . وطبيعي أن يقنع بالفجلة
وكسرة الخبز اليابسة من لم يجلس إلى الموائد المثقلة
بالوان الآكال الشهية ، ولكنه إذا جرب هذه
الطعوم المنيرة فإنه لا يكون آدمياً إذا ظل يعد
الفجلة نعمة من الله ! »

وسأل نفسه مرة أخرى : « ولكن هل معنى
هذا أن الأولى أن تُرد البنات عن حمامات البحر
وما إليها ؟ » وهز رأسه وقال لنفسه : « مستحيل .
ثم إن الحياة لا تطيب بذلك حتى لو تيسر ... كان
يمكن أن تطيب لو أننا ظلمنا لا نرى على الشاطئ كل
هذه اللقائن ، ولكننا أكلنا من شجرة المعرفة فلا

جلس « طلبة » في القطار المائد به من مصيفه
في الاسكندرية يفكر في « وردة » ، فما استطاعت
الاسكندرية بمن حفلت بهن من الفتيات اللاتي
جئن من كل مدينة وقرية ليمرضن جالهن
وقتنهن على شواطئ البحر أن تنسيه سحرها ودلها
أو تصرفه عنها وتحول قلبه إلى سواها . وإن
الاسكندرية لمفسدة أي مفسدة — كذلك جعل
يقول لنفسه وهو يهتز في مقعده من فرط السرعة
التي يمدو بها القطار — ماذا يظن هؤلاء الآباء الذين
يتكئون بناتهم يتجردون على الشاطئ ، ويصبحن
لاهن كاسيات ولاهن عاريات ؟

ولم يكن طلبة من الطراز القديم أو المحافظ ،
فقد كان ابن عصره الذي لم يشهد سواه ، ولكنه
كان فتى أكسبته حياته وعمله اتزاناً قلما يتاح في
مثل هذه السن ؟ فقد كان صيدلياً ، والصيدلي يرى
كل صنوف الناس ، ولا يسمه وهو يستقبل الزبائن
ويرحب بهم ويتلقى « أوامرهم » ويصني إلى حديثهم
وترثتهم في أحيان كثيرة إلا أن ينظر ويفكر
ويقارن ويقابل ، وإلا أن يقف على كثير مما يخفى على
الشبان أمثاله في أعمال أخرى ، وإلا أن يلم بمحالات
قلما تمر نظارها بأنداده . وقد أفاد من عمله في

قناعة لنا بشيء بعد الآن ، ولا سبيل إلى الصبر على الحرمان ... »

واعتدل في مقدمه وسأل نفسه هذا السؤال « إذا كان الزواج هو الغاية ... لا تقل الغاية ... فانه على كل حال ليس إلا واسطة . ولكن نقول إذا كان هذا الزواج هو النظام المقرر فأيهما خير للرجل المدرك المفكر ... أن يتزوج واحدة من أولئك اللواتي لا يخرجن إلى البحر في ثياب الاستحمام ولا يعرفن السباحة ، ولا يبرزن للرجال ، ولا يعرفن من الحياة إلا الأكل والكسوة والجلوس على الحشايا ، ولا تحشى عليهن الفتنة لأنهن لا يتعرضن لها ، أم أن يتزوج واحدة من هؤلاء المرحات ، الصابحات الوجوه ، البضات الأجسام ، الرشيقات القوام ، اللواتي يحسن الحديث والسمر ، ويعرفن كيف يتمتعن ويتمتعن ، ويجملن الحياة كلهما فرحة دائمة ، ونعيمًا مقيمًا ، وممتعة مستمرة ، لكثرة ما فيها من التنوع ؟ وهز رأسه مرة أخرى وقال : « مشكل والله ! وعقدة لا أعرف لها حلا ... فتلك الجاهلة لا تكون إلا ممتلئة ، وإن كان المرء يسمه أن يطمئن وأن يسكن ، وتلك المتعلمة المدنية البرزة أحلى وأمتع ، في أول الأمر على الأقل ، ولكن السكره تذهب ، وتزول النشوة ، وتبجى الفكرة ، ويحتاج المرء إلى السكون والرضى والاطمئنان ... الراحة على العموم ... وابن الراحة مع الخفة والتقليل الدائم والشك الذي لا سبيل إلا إليه ولا حيلة فيه ؟ »

وطال تفكيره في هذا وما هو منه بسبيل ، ولم يجد في هذا الراحة ، ولم يستطع أن يهتدى إلى رأى فيما عرض على نفسه ، فانتقل إلى « ورده » وشرع بتصورها على هواه . وكان يدرك وهو يفعل ذلك انه يفيض عليهما من خياله ، ولكنه كان يقول لنفسه ان الخيال أمتع من الحقيقة ، وإن الجمال الذي لا يحرك

الخيال لا قيمة له ، وإن الجمال الحقيقي هو الذى يجدد نفسه في خاطرك ، ويعرض عليك من صورته وفنائه ألواناً ومعاني لا ينضب لها معين . وهذه ضربة ورده ، وإن كانت هذه أيضاً آفتها ، فانها زئبقية ... لا تستقر حقيقة لها — إذا كانت لها حقيقة — ولا نستطيع أن نتناولها ونقول هذه هي في يدي ... كلا ... مستحيل ...

وارتفعت لعينه وهو يفكر في « زئبقية » ورده صورة « ميمى » الوديمة ... ميمى البتيرة التى لم يبق لها من الأهل سواه ، فهي في بيته — مذجات بها أمه — كالأخت ، أو إذا شئت ، كالتخادمة ، تقضى له حاجاته ، وتمد له أشياءه ، وتمهد البيت ، وتدبر أموره ، فى سكون ومع الابتسام الدائم ، ومن غير تأفف أو نخبر ، ولا تطلب إلا أن يكون راضياً ناعم البال قدير العين ... أتراها تحبه ؟ إن هناك ما يشير إلى ذلك ويشى به ، ولكنها لا تقول شيئاً ، ولا تجترى على أكثر من ابتسامة السرور حين يسرها ، ويخيل إليه أحياناً أنها كانت تبكي أو أن الدمع يتحير في عينيها ، ولكنه لا يدري ... لا يدري ... ثم إنه لا يريد أن تحبه ، كلا ... فانه يحب غيرها ...

وجرى بياله البيت المشهور وهو يتناول حقيقته وينزل من القطار في محطة القاهرة :

« جنتا بليلي ، وهي جنت بغيرنا وأخرى بنا مجنونه لا نريدها »

فقال بصوت مسموع : « أعوذ بالله ! ما هذه السخافة ؟ قد تكون ميمى مجنونة بى ، وإلى المجنون ورده ، ولكن ورده على التحقيق لا تحب أحداً غيرى ... نعم لا يبدو أنها تحبني كما أشتئى وأتمنى . ولكن من فضل الله أنها لا تحب سوى ... هذا شيء على كل حال ... يمكن أن أقنع به الآن ...

لا تفكر فيه ، ولا نبألى أجاها بهذه الأزهار الجميلة
أم نسيها ولم يخطر لها باله . ولكن ميمي لا تستطيع
أن تقول له هذا وإلا ظن بها الظنون

وأحست ميمي وهي تنفض لطلبة ثيابه التي يجب
أن يرتديها بثورة نقمة على وردة ، وشمرت كأن
وردة نخون طلبة لأنها مشنوفة بسواه . وصحبح أن
وردة لا زوجته ولا خطيبته ، ولكن هذا لم يمنع
ميمي أن تسخط على وردة وأن تشعر لها بكراهية
شديدة يزيدا عليها أنها غير محقة فيها

وخرج طلبة ، ومعه طاقة الزهر الأبيض ،
وبقيت ميمي وحدها ، لا أنيس لها إلا خواطرها .
نعم هناك أمه ، وأخته ، وخادمة ، ولكن ما أنسها
بهؤلاء ؟ وهي مضطرة أن تكاف أمهين الابتسام
وأن تتظاهر بغير ما تبطن ، وهذا بلاء آخر ...

ولم يطل غياب طلبة ، فقد عاد ، ومعه طاقة
الزهر الأبيض التي خرج بها ، ففتحت له ميمي
الباب وارتدت مذهولة .. أذهلها تجهمه ، وأذهلتها
طاقة الزهر التي تتدلى بها يده ؟ فارتدت ولم تقل
شيئا ، وتركته يدخل وهو مطرق لا ينظر إليها ولا
إلى شيء ، ويرى بطاقة الزهر على المائدة ، ويذهب
إلى غرفته ، ويرد بابه حتى لا يدخل عليه أوزعجه أحد
وبمد قليل صفق ، فذهبت إليه أخته فردها وقال
لها : « ابني إلى ميمي » . ولم يكن هذا مستغربا
فقد كانت ميمي هي الموكلة به في الحقيقة ، وكانت
أمه يسرها أن ترى ميمي تقوم له بحاجاته وتكفل
بأموره ، وكان رجاؤها أن يظن ابنها إلى قيمة ميمي
فيتخذها زوجة

وذهبت إليه ميمي فقال لها : « اجلسي ،
واصدقيني »

قالت : وهي تجر كرسيا : « نعم »
قال : « وردة ... إنك تعرفينها كما أعرفها ، فلا

ومع الارتفاع ... ولكن من يدري ... ؟ »
وساورته الشكوك وهو يشتري في طريقه طاقة
من الأزهار البيضاء التي يعرف أن وردة تحبها ،
وظلت تساوره وهو يدخل شقته وياقي بالحقيبة ،
ويتلقى تحية ميمي بفتور لا يعنيه . وقد سخط على
نفسه وأوسمها تقريبا وذمها ، وقال لها : « هذه وردة
يشرق وجهها لك ، وتكاد تفتح ذراعها ، وتبدو
كأنها تريد أن تضيئك إلى صدرها الناهد ... الحق
أن صدرها جميل ... وأنت تقابلها بهذا الفتور ؟ ...
إن هذه خسة : ماذا جئت الغتاة حتى تصدمها هذه
الصدمة ؟ وتدفع في صدرها بجتمع يدك ؟ آه صدرها !
... الحق أنه جميل ... قدما كله جميل ، فيها لين ،
تنساب كلاء الرقراق ... ثم إنها ودیمة ، راضية ،
حلوة الطبع ، لماعة العين دائما ، أوه ميمي .. ميمي ؟
إنه يجب أن أفكر في وردة ... »

وكانت ميمي في هذه اللحظة تضع الورود في
الزهريّة ، فزعم طلبة : « ماذا نصنعين ؟ »
قالت باستغراب : « أرتب الورد ، أليس ... »
ولم تتمها ، فقد انزع منها الأزهار وهو مقطب
ولفها في ورقها كما كانت ، وتعم وهو يفعل ذلك :
« ترتب الورد : أتراها تظنني جئت به لأزين به بيتي ؟ »
وقال بصوت عال : « دعيه هكذا ... إنه لوردة »
فأحست المسكينة بمثل شكة الخنجر ... يعود
من الاسكندرية بعد خمسة عشر يوما قضاها هناك
نائيا عنها ؛ ولا يذكرها بزهرة واحدة ، ومعه هذا
« الحوض » كله ، يحتفظ به لوردة ؛ ولا يخطر له أن
من الرحمة الواجبة ألا يحجزها على هذا النحو ، ماذا
كان عليه لو اتقى أن يجيئه به إلى البيت ؟ ولكن ..
ولم تسترسل في هذه الخواطر المؤلمة ، فقد كان
عليها أن تهني له ثيابا أخرى يلبسها ليصور وردة ؛
وإن ميمي لتعلم أن وردة مشغولة عنه بغيره ، وأنها

نخفي عنى شيئاً ... ما هي الحكاية ؟

قالت : « أى حكاية ؟ »

قال : « إن المرأة تعرف عن المرأة أكثر مما يستطيع أن يعرف الرجل . ثم إن النساء يتحدثن فيما بينهن بما لا يتيسر العلم به للرجال ، فأخبريني ما هي حكاية وردة ؟ »

فكررت قولها : « أى حكاية ؟ »

قال : « ألا تريدن أن تخبريني ؟ إذن سأعرف كل شئ ، وحدي » ونهض فخرج ...

ولم تستطع ميمى أن تكتم ما بنفسها ، فحدثت أمه بما سألها عنه من خبر وردة ، وتركها تتصرف كما تشاء . على أن الأمر لم يحتاج إلى تصرف من الأم أو سواها ، فقد أراد طلبة أن يقف على جلية الخبر وأن يعرف من هذا الشاب الذى رآه خارجاً معها من بيتها يوم عاد — أى طلبة — من الاسكندرية ، وذهب إليها ليسلم عليها ويقدم لها الورود البيضاء التى تحبها وتؤثر جمالها على سواها من ضروب الزهر . وكان هو بهم بالنزول من الترام فى محطته أمام بيتها ، فلما رآها خارجة ومعهما هذا الفتى الغريب الذى لم يره قط من قبل بقى على سلم الترام إلى المحطة التالية ، ثم عاد إلى بيته . وما خير أن يذهب إليها وهى خارجة ؟ ومع فتى ؟

وكان « طلبة » ممن يؤمنون بأن الخط المسقيم أقرب المسافات بين نقطتين ، فذهب إلى أبيها وسأله عن هذا الفتى من عسى أن يكون . وكان بين أسرة طلبة وأسرة وردة من الصلات الوثيقة القديمة ما يسمح له بمثل هذا الاستفسار الذى كان خليفاً أن يعد — لولا ذلك — فضولاً غير مقبول . وكانت وردة وحيدة أبيها ، وقد ماتت أمها ، فرق لبنته جداً ودلها تدليلاً شديداً . فقال الأب : « هذا حسنى ... خطيبها ... وعلى فكرة ... أظن أنه من

الأوفى ... تعرف ما أعنى ... ولا مؤاخذه »

فهز طلبة رأسه وقال : « نعم أعرف ... يحسن بي أن أكف عن زيارتكم حتى لا أثير وساوس الخطيب ... ولكنى يا عمى من عسى أن يكون هذا الخطيب ؟ إنه طارىء ولا شك ، فاني أعرف كل معارفكم ، ولا أذكر أنى رأيت أو سمعت به وما غبت عنكم إلا خمسة عشر يوماً . أفى خمسة عشر يوماً يعرف وردة ، ويخطبها ، وينتهى الأمر ؟ »

قال : « ولم لا ؟؟ يوم واحد يكفي ما دمتنا قد

قد سألنا ووثقنا أنه شاب طيب حسن السيرة »

قال : « وهل سألت يا عمى ووثقت ؟ »

فقال الرجل بلهجة المتأفف : « ما هذه الأسئلة ؟ »

فقال طلبة وهو ينهض : « أنا أعرف أنك لا تستطيع أن تكذب ... وأستطيع أن أعرف أنك لم تسأل ولم تستوثق ، وإنما نابت عنك وردة فى هذا كله ... مبارك على كل حال ... وأستودعكم الله »

ومضت الأيام وطلبة يمالج نفسه ، ويروضها على الانصراف عن وردة ، واستطاع شيئاً فشيئاً أن يقنع نفسه بأن الخيرة فى الواقع ، وأن الزواج لا يكون مؤدياً إلى السعادة إذا كانت الفتاة مدلة كوردة كل هذا التدليل ، حتى لتخطب لنفسها من تشاء ، ولا يسع أباه إلا الموافقة . وعاد — شيئاً فشيئاً أيضاً — إلى ما كان يفكر فيه وهو عائد من الاسكندرية ، ويسأل نفسه عنه : « أى الفتاتين خير ؟ واحدة نشأت على الطاعة والعفة أم أخرى مدلة تعرف حمامات البحر والخروج مع الرجال ؟ » وزاد السؤال تحديداً فجمله هكذا : « أيهما خير لثلى : فتاة ودیمة كيمى تحببى ونطیعنى ولا تعرف سواي ، أو تفكر فى غیر واجباتها لی وإن كانت

الطويلة المريضة الزاخرة بملايين الخلق، والتي تضيق مع ذلك بفتاة واحدة؟؟

وطال التردد، ومضت الأيام، والسكل حار، حتى طلبت بدأ يستغرب، وظن أن ميمي لا تريده، وأنه كان مخطئاً فيما توهمه دليلاً على ميلها إليه وتملقها به؛ وكان من فضل هذا أن صدا إليها بقلبه، شيئاً فشيئاً أيضاً... حتى كانت ليلة فناداها، فلما دخلت عليه صارحها بما نابت عنه أمه قبل ذلك في الكلام فيه

فقالت له: «لا... إنك تحب وردة، فأنا لست لك»

قال: «أهو هذا؟» وسرته هذه الغيرة وأيقن من حب الفتاة وقال: «اسمعي يا ميمي: لقد كنت أنوهم أني أحب وردة، ولكن المرء قلما يعرف نفسه. ولو أني كنت أحبها بالمعنى الصحيح لما استطعت أن أسلوها بهذه السرعة. وقد كنت أعلمي... الدرة تحت عيني وأنا لا أراها...»

فقاطمته: «لأنك لم تكن ترى إلا وردة»
قال: «نعم» فلما خلت منها حياتي استطعت أن أنتفع بميمي. ومن واجبي أن أشكر الله، فلو لم أتعلم بوردة لما استطعت أن أفطن إلى الدرة التي كنت ذاهلاً عنها... وإذا كنت تحبيني كما اعتقد وأرجو، فإن من واجبك أن تحمدي أني افتننت بوردة أياماً، فكانت هذه الفتنة سبيل المعرفة ووسيلة الهداية... أليس كذلك يا ميمي؟»

وأراد قلب ميمي أن تقتنع، فاقنعت، ولم تندم قط بعد ذلك على أنها أطاعت قلبها ولم تطع كبرياءها. وقد كان من الممكن أن يكون الأمر على نقيض ذلك، ولكن طلبت كان صادقاً حين قال إن فتنته كانت سبيل المعرفة، وإنه عرف نفسه بمد أن ضل قليلاً.

أبراهيم عبد القادر المازني

تتقصها مظاهر الطراز الحديث؟ أم أخرى كوردة تخطب لنفسها من تشاء ولا يسع أباه إلا الموافقة؟»
وانتهى من هذا إلى التفكير الجدي الرزين في ميمي، ولم يخالجه شك في أن ميمي ستفرح حين تعلم أن رأيها استقر على الزواج منها. وقد خاطب أمه في الأمر ففرحت، وحدث أخته ففرحت، وكاد يحدث الخادمة، وفي يقينه أنها لا شك ستفرح فقد ربيت - أي الخادمة - في بيته

كل امرئ فرح إلا ميمي، حين كلتها أمه. وفي قولنا إنها لم تفرح شيء من التساهل في التعبير، ذلك أنها فرحت لأن هذا هو الذي كانت تطمح فيه وتنطلع إليه، ولكنها كانت تعلم أن طلبت يحب وردة، وآلمها أن يشق طلبت، وأن تفدر به ونحوه وردة، وسرها أنه لم يفرزها، وحز في نفسها أن طلبت إنما اثنتي إليها ورغب فيها لأن أمه في ورده خاب. وكان هذا أوجع ما عانته من الاحساسات، وتنازعها الرغبة في إرضاء حبها بالقبول والرغبة في إرضاء كبرائها بالرفض؛ وكانت أحياناً تميل إلى الرفض وهي تشتهي ويكاد قلبها يتمزق من فرط الحب، ثم تميل إلى القبول، ولكن الألم يمزق أعصابها ويثقلها، فتبكي

وترى الأم والأخت هذا منها فتستغربان وتنكران هذا البكاء، ويخطر لهما تارة أن هذا بكاء السرور، وتارة أخرى أن ميمي لا تريد طلبت زوجاً لها، ولكنها لا تستطيع أن ترفض لأنها يتيمة لا أهل لها ولا بيت إلا هذا...

وكان هذا بمض ما خطر لميمي وقطع قلبها، وزادها حيرة، فهي إذا قبلت الزواج لا يسمعها أن تنسى أن قلب طلبت مع وردة، وإذا رفضت، فقد قضت على حبها ووجب عليها في هذه الحالة أن تترك البيب، ولكن إلى أين في هذه الدنيا

شجرة الكبرياء المسجونة

للكاتب الشهير بوكاتشو
للاستاذ محمد كامل حجاج

ليحل محل زوجي من هذه الوجهة ؟
وهو شاب شريف محبوب .
ولقد رأيت أنه أجدر من غيره .
ولقد تيمنى حبه وأصبحت
لا أفكر إلا فيه ، وإن لم أتمتع
بحبه فإني أموت كدأ . وأظن
أنك لا تحجمين عن مساعدتي .

فعرفته بالطريقة التي ترين أنها مناسبة بما أ كنه له
من المواطنات التأججة ، واجتهدي في إقناعه بالمجيء
إلى عند ما أدعوه .

طمأنت الخادم سيدتها ووعدتها بتنفيذ رغبتها ،
ورأت فرصة سانحة لخاطبة ييروس ، وكان ذلك في
نفس اليوم ، فأمرت إليه بما دار بينهما من الحديث
فدهش الفتى من هذه المفاجأة مع أنه لم يلاحظ
شيئاً من ذلك قبل هذا اليوم ، وخاف أن
يكون هذا شراً كما منصوباً لاختباره فقال لها :
« إنني لا أقتنع بصدق ما تقولين ، ولا أظن سيدتي
تكافك بهذه المهمة . وإن كانت أرسلتك حقاً فلا
أظن ذلك إلا مزاحاً . وإن أرحى عهد سيدي فلا
أسمه بهذه الاهانة ، فلا تكافى نفسك مشقة مجادلتي
في هذا الموضوع مرة أخرى . فأفهمته لسك بقسوة
رفضه وقالت له : « مهما كان ذلك يضايقك فإني
لن أتأخر في إخبارك بما تكلفني به سيدتي . وقصاري
القول أرجو أن تكون بصيراً حكماً »

ولما علمت السيدة ليديا جواب ييروس فضلت
الموت . وبعد بضعة أيام خاطبت خادمها في حبها
التأجج فقالت لها : « إن الشجرة لا تقطع بضربة
واحدة . ويجب أن تعيدي الكرة مع ييروس الذي

كان بمدينة أرجوس اليونان نبيل تقدمت به
السن ، فأراد أن يبحث له عن زوج تكون له عوناً
على شيخوخته ، فتزوج من ليديا وكانت من أسرة
عظيمة جميلة محبوبة . كان الرجل غنياً جداً ينفق
بسخاء ، وكان مولماً بالصيد ، وكان له عدد كبير من
الكلاب والصقور والخدم . وكان من بين حاشيته
شاب حسن الوجه أنيق الهندام يعمل كل ما يطلب
منه بمهارة وسرعة ، فكان موضع ثقة سيده .

شفقت ربة البيت بهذا الشاب ، فكان لا يهدأ
بالها إلا إذا رأته أو تحدثت معه . ولقد زاد حبها
ضراماً فلم تقو على كبحه ، وصممت أن تقامحه به .
وكان من بين خدمها امرأة تدعى لسك تميل إليها
وتثق بها ، فقالت لها ذات يوم : « إن ما صنعت به
من الجليل وتعلقك بي يشهدان بطاعتك واحتفاظك
بالأسرار ، وآمل ألا تبوحى لأى فرد كان بما
سأمره إليك . إنني فتية قوية كما ترين ، لا ينقصني
شيء من الجلال والمال ، ولو كان زوجي من سنى
أو كنا متماثلين في المزاج لأرضى رغباتي . وأعترف
لك بأنني لست عدوة لنفسى حتى أبحث عما لا أجده
عند زوجي . وما وجد الزواج إلا للتمتع بالذات
الحب التي حرمت منها . وقد وقعت عيناى على ييروس

سيدك حكيم بصير بالأمور كثير الشكوك فسأريك كيف أخدعه على مرأى منه وأجعله بظن أن ما شاهده لم يكن إلا وهماً . دهش يروس بما قالته سيدته وانتظر بفارغ الصبر طريقة التنفيذ

وفي ذات يوم أولم زوجها ولبية فاخرة لأصدقائه فأخذت زوجها الباشق ولوت عنقه أمام يروس وجميع الحاضرين ، فصرخ زوجها قائلاً ماذا عملت ؟ فلم ترد عليه والتفتت إلى النبلاء الحاضرين وقالت : « انني انتقمتم من هذا الباشق لأنه سبب لي كثيراً من الآلام مما لا يمكنكم أن تتصوروه ، فطالما أبعد عني زوجي إذ يأخذه ويخرج للصيد قبل طلوع الشمس كل يوم تقريباً ، وقد سممت من زمن على قتل هذا الطائر ، ولكنني انتظرت هذه الفرصة السانحة لأشهدكم أكنت محقة في عملي أم لا ؟ فظن الحضور أن الزوجة ما أقدمت على هذا العمل الفظيع إلا لشدة تعلقها زوجها وطفقوا يضحكون . ثم التفتوا إلى زوجها وقد كاد يتميز من النفيظ وقالوا له : « أتفضل هذا الطائر على زوجك ؟ ولقد أحسنت بأن تخلصت من مزاحمها . ولما دخلت الزوج إلى غرفتها تهادى الحضور في مزاحهم حتى أن نيكوسترات فارقته حزنه وطفق يضحك مثاهم من هذا الانتقام الوحيد في يابه

وقد استبشر يروس من تنفيذ الشرط الأول وغرق في بحار أمانيه

وبعد أيام كانت الزوج تداعب زوجها وكان مهتلاً مستبشراً فرأت الفرصة سانحة لتنفيذ الشرط الثاني فجملت تدلله وتماثقه ثم ترعت خصلة من ذقنه فتألم الرجل أيما ألم وغضب وقال لها فكركي ماذا تعملين ياسيديتي ؟ فقالت له : « أنقتاظ ياسيدي من خمس أو ست شمعات وأنا لم أغضب حينما جررتني

يريد أن يكون مخلصاً لسيدته . ترقى الفرص المناسبة لتصورى له فرط غرامي وتباريح آلامى ، فليس من قائدتك ولا من قائدتى أن تهمل هذا الموضوع فانك تجازفين بحياة سيدتك

فمزت الخادم سيدتها ووعدتها بأنها ستحاول إقناعه بكل الوسائل . ثم ذهبت إلى يروس فوجدته معتدل المزاج مسروراً فقالت له : « لقد فآمتحك منذ بضعة أيام وقلت لك إن النار اشتعلت في فؤاد سيدتى وإن استمرت في رفضك فانك ستخاطر بصحتها وحياتها ، ولا تكن عديم الشعور أمام آلامها . أى نخر أن تكون محبوباً من سيدة ذات شأن كهذه ، تروى أسرك فستصبح في مأمن من الفقر ، وسيكون لك أنخر السلاح وأجود الخيل وأجل الثياب وأعلى الحلى بخلاف الذهب والفضة . وستقابلك اليوم بذراعين مفتوحتين ، فلا تنزع ذراعيك منهما إن كنت لا تريد أن تكون لها عدواً أو تصبح فقيراً معدماً تتجبط في دياجير البؤس والفقر . إنك تضحككن حينما أفكر فى أوهاملك وخزعبلاتك

فكر يروس طويلاً وتأمل فى كلام لسك وقال لها : « إننى طوع أسرها إن كانت تقنعنى بحسن نيتها لأننى أعلم طباع زوجها . ولربما اتفق الاثنان على أن تتصنع لى الحب لتختبر أمانتى ؛ ولدى وسيلة إن هى نفذتها اطأنتت إليها وسلمت لها قيادى ، وهى أن تقتل باشق زوجها فى حضوره ، وتنزع خصلة من شعر ذقنه وترسلها إلى ، وتخلع سنأ من أجل أسنانه » وقد وجدت الخادم وسيدتها أن هذه الشروط الثلاثة لا يمكن أداؤها ولكن الحب لا يعدم الوسائل للحصول على رغبانه . فأرسلت إلى يروس تنبئه بقبول هذه الشروط . ومادمت تظن أن

التي احتفظت بها طوال هذه المدة : ومن المحقق أنها لو تركت أفسدت جميع أسنانك . وقد نزع الجرح كثيراً من الدم ، ثم شرب أكسيراً مقويًا وارتقى على سريرته كالليت

ثم أرسلت زوجها السن إلى بيروس دون أن تضع شيئاً من الوقت . فاطمان لها وقال إنه طوع بإشارتها .

كانت الحسنة لا تألو جهداً في إظهار حبها ؛ وكانت تعد الساعات كالسنين ولم يبق عليها إلا إرضاء حبها على مرأى من زوجها ، وأخبرت لسك بيروس بالدور الذي سيلعبه . ثم تصنعت المرض ، وذهب بعد الظهر لمقابلة سيده ، وفي هذا البعاد يجلس رب البيت مع زوجته . ولما رأت الاثنين مجتمعين أظهرت رغبتها في استنشاق الهواء في الحديقة ورجتهما أن يقوداها إلى ، فأسندها زوجها من جهة وبيروس من الأخرى وذهبا بها إلى شجرة كثري وجلس الثلاثة على بساط جميل من الخضرة . وبعد آونة اشتبهت السيدة أن تأكل من السكرتري فرجت بيروس أن يتسلق الشجرة ويقطف بمض الثمار الناضجة فأطاع وصعد وتصنع أنه رأى سيده بداعب وبعانق زوجته وصاح : ما هذا ياسيدي ؟ وكيف تسول لك نفسك أن تعمل هذا في حضوري ؟ وأنت ياسيدي أمانحجلين من مثل هذا اللعب ؟ كفى ، فإن هذه الأمور لا تجري أمام الناس . أليس الليل طويلاً ؟ هل خرجتما إلى الحديقة لأجل هذه الأعمال ؟ ألم تكن عندكم غرف وأسرة كافية ولائقة ؟ فقالت المرأة لزوجها :

ماذا يعني بهذا القول ؟ هل فقد حياء ؟

— لا ياسيدي فإني لست بمجنون . إلى أرى جيداً ما أراه . ثم قال له الزوج بعد ما ضحك من قوله : « إنك تحلم حقاً »

من شعري منذ هنية ؟ وقد أرسلت الحصلة في نفس اليوم إلى بيروس

والشرط الثالث هو بلا شك أصعب الشروط ، ولكنه لا يصعب على العشاق ذوي العقول الراجحة . وكان لزوجها حاجبان من أسرتين عظيمتين أحدهما يشرف على شرابه والآخر على طعامه ، فاهتمهما سيدتهما أنهما أبجرا وأوصتهما بأن يبعدا رأسهما إلى الوراء حينما يقدمان إلى سيدتهما شيئاً ففعلتا بوصية سيدتهما

وبعد بضعة أيام قالت الحسنة لزوجها : أما لاحظت سحنة حاجبيك حينما يقدمان إليك شيئاً ؟

— نعم لاحظت وقد أردت أن أسألهما عن السبب — لقد لاحظت ذلك من زمن ، ولكنني خشيت أن أفاحمك في الأمر . والآن قد لاحظ ذلك غيري فقد رأيت أن أحذرك ، ولا أعلم سبب ذلك ؛ وإني أصارحك بأن رائحة فك كريهة جداً ، وربما كان ذلك من سن نخرها السوس . ثم اصطحبته إلى الكوة وفتحت فيه ثم قالت له إن سنك منخورة ومتعفنة ، وإن خلعتها أبعدت الضرر عن أسنانك الأخرى .

— سأبحث في طب الجراح ليقلمها

— إن هؤلاء كالجلادين ولا يستدعي الأمر حضورهم وسأخلعها أنا بنفسى دون أن أحدث لك ألاماً . ثم أخرجت الخدم ولم تترك إلا لسك وأوصدت الباب ، ثم أخرجته وجعلت رأسه في حجر الخادم لتسك به لئلا يتحرك ثم فتحت فيه وخلعت أجمل أسنانه بشكل عنيف تركه يصرخ من الألم ولبت هنية كالغشى عليه . وفي هذه الأثناء أخفت السن الجميلة التي خلعتها وأبدلتها بأخرى نخرة متعفنة ثم قدمتها له قائلة : « انظر إلى السن

— إننى لا أحلم مطلقاً .

ثم قالت زوجته : ربما تراهى له مايقول

— تأكدى من قولى يا سيدتى فليست واهماً

— إنزل إذن !

— ولما نزل قال لى أدراك الآن منفصلاً عن

سيدتى وبمبدأ عنها

— إنك تحلم يا مسكين ، لأنى لم أبرح مكانى

ثم قال بيروس : ربما كانت هذه الشجرة مسحورة

فأراد الزوج أن يتحقق بنفسه من هذه المسألة

ليتأكد إن كانت الشجرة مسحورة . فصعد بدوره ،

وما كاد يستوى فوق أغصانها حتى قام بيروس

وزوجه بتمثيل دورهما من عبث وعناق

— ماذا تصنعين يا سيدتى ؟ ! وأنت يا بيروس

أخدم سيدك بهذه الصقة ؟

ثم أسرع فى النزول فرجع الماشقان كل منهما

إلى مكانه والتزما السكون والحشمة

— ما هذا يا سيدتى ، أنترفين هذه الفضاء

أمام عيني ؟ وأنت أيها الوغد ... فقاطعه بيروس :

« إنى أعترف أنكما كنتما حكيمين عند ما

صعدت على الشجرة . والذي ظننت أنى رأيت لم يكن

إلا سحراً . والذي بكمل إقناعى أن سيدى ظن أنه

رأى شيئاً لم يكن

— لا تحاول أن تعتذر فارأيت لم يكن سحراً

ولكنه حقيقة . ثم قالت امرأته إنه مجنون مثل

بيروس . وأظن أنك قادر أن تتصور مثل هذه

التصورات على حسابى ، وإن كان الأمر كذلك ،

فانى أثور

ثم قال بيروس : « أتهين سيدتى بمنزل هذا

الكلام ، وهى مثال الاستقامة والمغة ؟ ثم قامت الزوجة

متصنعة الغضب لتضلل زوجها الأبله وهى تقول :

— أظن أننى بعد هذه الأعوام الطوال أنجراً

على اقتراف هذه الفضائح على مشهد منك ؟ وتأكد

أننى إذا كنت أريد شيئاً من هذا القبيل لا أعدم

الوسائل لارتكابها دون أن تشعر . وإذا كانت كل

هذه المصائب من هذه الشجرة المسحورة فانى لا أريد

أن تؤذيني بعد هذا أو تضر امرأه غيرة . ثم التفتت

إلى بيروس وقالت له : « أحضر فأساً واقطع هذه

الشجرة واحرقها » فصعد بالأمر . ثم التفتت إلى

زوجها وقالت له : « وحيث أنى أرى الآن عدوة

فضيلتى ممدودة على الثرى ، فانى أعفو عنك وأسأحك

وأوصيك من الآن فصاعداً أن تكون عندك فكرة

أحسن من تلك عن امرأتك التى تحبك أكثر مما

تستحق ألف مرة . ولقد سر الزوج أن رأى عقيلته

تعفو عنه واعتذر لبيروس عما فرط منه من الشك

ودخل الثلاثة القصر مفتبطين مسرورين

وبهذه الطريقة خدعت المرأة زوجها وخاتته

وفضيلته . ومن هذا اليوم عاش بيروس مع سيدته

بدون كافة بنعم معها بالذات الحب بحرية أوسع من

حريته حينما كان تحت شجرة الكثرى

محمد كامل صباغ



من بعض نواميس الفريزة
التي لا تخضع لسلطان
واقدمنا لهذا الموضوع
كثير من الكتاب انتهوا
فيه إلى الحد الذي ذكرته.
ومع ذلك ألم يقرأ أحدكم

سوسن النورسية

للاستاذ محمود بك خيرت

قصة مايس ؟

قلنا وما هي قصتها ؟ فقال :

إن هذه الفتاة ابنة خمار وثني لم يُعن بها ، حتى
إذا آتت (مرهوا) العجوز في حنجرتها مرونة
وفي قوامها ليناً أقبلت عليها تعلمها الغناء والرقص ،
فخرجت زهرة ناضرة وخليفة خلابة ، أقامت في
أنطاكية وإسكندرية دولة للشهوة خدامها الأمراء
والحكام ، وفجّرت فيها بحراً للفسوق عوج لججه
بالنصار تطوّه بقدميها اللتين ما عرفنا غير أحوال
الفقر . وظل هذا شأنها : كأساً مترعة تطوف بها
يد الليالي على الشفاه التي أعطشها الهوى حتى بلغ
بافنوس الناسك مدينة إسكندر الأكبر فقام في
نفسه أن يصددها عن سبيل الغواية ويفتح قلبها
إلى دين الله

ومن أعجب الأشياء أن هذه الفتاة الهيفاء
الذاعمة التحككة في كل ذى سلطان نفذت إلى
نفسها التي تغلذت الشهوة فيها أنوار الهداية فهان
عليها أن تتبعه وأن تحرق قصرها وما ضم من متاع
ونعيم حتى لا يبقى أمام عينيها أثر فتن من ماضيها
أما ذلك الناسك فكانما أفرغ فيها كل
ما وعت نفسه من هدى وتقوى ، حتى إذا وجد
الشیطان عنده مرعى خصباً نفخ فيه من روحه
غوايته فأشمل قلبه بهوى تلك الصالحة ، وهكذا

جرتنا الحديث في بعض ليالي سمرنا إلى طائفة
من الناس لا تتصور المرأة وتنفر من ذكرها لأنها
في نظرها شيطان . وقد احتدم حولها الجدل
وتشعبت الآراء حتى صاح أحدها وكان يسمع ولا
يشارك في الحديث :

أراكم قسوتهم عليها وأسرفتم ، مع أن الله حين
خلق آدم خلق حواء إلى جانبه ليطيب بها ولتسكن
نفسه إليها . أما أنها شيطان فقد يكون في بعض النساء
شياطين ، وكذلك في بعض الرجال ، والإنسان يحمل
في مطاوي نفسه الخير والشر معاً ؛ فإذا رجح أحدهما
كان ملكاً أو شيطاناً . ولولا ذلك لما جاءت
الشرائع بتعديل نسبتي الخير والشر بين الناس

على أنى لا أنصور كيف يستغنى رجل كائناً
من كان عن المرأة وقد ركّز الله في كليهما
الشهوة ليصونا كيانهما وليتحقق بقاء النوع .
إننا نحسن الحاجة إلى المرأة كما نحسن الحاجة إلى
الطعام والشراب . إلا أن من الناس من يهيم
بها هياماً فلا يملك الصبر عنها كالنهم يجعل
معدته فوق ما تطيق فتتخم . كما أن منهم من
ينظر إليها كوسيلة وقتية من وسائل الاستمتاع
حتى إذا بلغ غرضه منها زهد فيها — ولكنهم
جميعاً لن يجدوا مفرأ منها وإلا كانوا نافرين على
الطبيعة ، لأن حاجة الرجل إلى المرأة وحاجتها إليه

محامياً في مصر كان علماً من أعلامها صادفته ظروف قاسية أصبح على أثرها يجهل القراءة والكتابة كأنه لم يتعلمهما . بل إنه كان لا يذكر اسمه ولا يعرف كيف يكتبه . وهذه مسألة ثابتة من مسائل الطب الشرعي . فمن يدريك أن بعض هذه الظروف وقعت لصاحبك وكان سببها المرأة . بل من يدريك أن المرأة أيضاً قد تهدم في يوم من الأيام هذا الهوس الطائفي الذي تمكن منه وصرفه عن العمل النافع الذي خلقنا الله له ؟

وعند ذلك طرّق أسمعنا وقع أقدام تقترب منا ثم دخل علينا حسن أفندي الحلوة نفسه وهو يصيح : على شرط ألا تتعرضوا لذكر المرأة . فضحكنا وأخذنا نحيّيه ونمتب عليه لانقطاعه وقد لفّ حول طربوشه عمامة خفيفة ترك ذؤابتها تتدلى على إحدى كتفيه . وكانت أصابعه تمرّ على حبات سبخته حتى إذا ما فرغ قال : والله لقد هزنى الشوق فاستأذنت إخواني الليلة لأزوركم

كم كنت أودّ لو أنكم أخذتم عهداً مثلي فكنتم تقطعون الليل والنهار بالعبادة بدلا من هذا الهذيان الذي أنتم فيه . إنكم تجهلون مبلغ حلاوة الإيمان بالتوجه إلى الله والفناء فيه . لا تبحثوا عنه في المساجد أو غيرها ولكن ابحثوا عنه في بواطنكم . استمعوا إلى الصوت الذي يناديكم بين جنوبكم . وليكن لكم قاض من أنفسكم هو الضمير ، وراوع يحول بينكم وبين الزرع هو خشية الله . ثم إياكم أن تففلوا عن ذكره فإنه بذكر الله تطمئن القلوب . انني أصبحت أحتقر هذا الوجود الفاني وزخرف هذه الحياة الكاذب . أشعر وأنا في حضرة الله كأنني ملك أسرح في ملكوته وأسبح في سمواته . أصبحت

هداها ولكنه ضل ومات خامراً . والشهوة النائرة قد تمصفت بالناسك كما ردّ تقوى الله الضالين إلى حظيرة الهدى

ويلوح أن أنا تول فرانس واضع هذه القصة أراد بهذه المقابلة بين الهدى والضلال في نفسين متنافرتين أن يضرب لنا مثلاً على أن عاربة الرهبان نفوسهم لقتل ما غرسه تكوينهم فيها من الشهوة إنما هي خروج على الطبيعة البشرية التي لا يقهر سلطانها

نعم إن هذه الشهوة كانت أكثر تمكناً في نفسها منها فيه ، وله من صلاحه ونسكه رادع ولها من ماضيها المضطرب مُغري ؛ إلا أنها في الواقع ستمت معدة حواسها تكرار هذا اللون من طعام الشهوة فمافته . ولذلك كان انتقالها إلى نور الهداية طبيعياً ؛ وكذلك يافنوس الذي ظل طول حياته يحارب شهوته ويضغط عليها حتى انفجرت ؛ فقد كان نزوله على حكم الفريزة طبيعياً أيضاً

وعند ذلك صاح أحدهما : وما قولك في أخينا الحلوة وهو مع حسن صورته وشبابه وميسرته يمقت المرأة مقتاً ، حتى أنه ليستثقل أن يمرّ ذكرها بسمعه . بل إنه ليفادر المجلس الذي تُذكر فيه . وربما كان هذا هو الذي هبّاه إلى الاندماج في الدراويش ومشايخ الطرق فانقطع عنا . فاستمر في حديثه قائلاً إن هذا لا يغيّر من القاعدة التي ذكرتها . وإنما تعرض أحياناً أحداث الدهر للإنسان وتصدمه في بعض خصائص عقله فيقوم بين ذاكرته وبينها سدّ . إذ لكل عاطفة نجيش فينا ويشمر بها مخنأ مكان بين تلافيفه قد يتأثر بمثل هذه الأحداث فنفقد هذه العاطفة دون أن نفقد ما جاورها . وإني لأعرف

وفي إحدى تلك المرات بعد ذلك الحادث الذي وقع له عند أصدقائه أمسى عليه الليل وكان الهواء رطباً عليلاً والقمر قد برز من جانب الأفق ينشر على الصحراء غلالة رقيقة من نور هادي لطيف ، قطاب له السير أمامه على غير وجهة . وكان كلما ابتعد عن الأهرام لاحت أشباحها من خلفه كالخيام الجبارة تشرف على فضاء هذه الصحراء التي مرت عليها القرون وأشرق في ربوعها العلم والبأس والحكمة من عهد الملوك الأقدمين . وعند ذلك يفكر في عظمتها وعظمة من شيدوها . ولكنه لا يكاد يرفع بصره إلى السماء وإلى هذا القمر الذي يسبح فيها من ملايين السنين حتى تلوح له ضئيلة حقيرة في جانب عظمة الله وقدرته . وتأخذه هزة ساحرة فينتطلق لسانه بالتكبير ، وكأن الأهرام من مضخات الصوت ترجع صدى صوته عالياً يدوي في أجواء هذا الفضاء

وكان في أثناء سيره تمر قدماه بمظلم أوفر طولاً وحجراً من عظام الانسان فيذهب إلى أنها من بقايا الجبال النافقة

وعند ذلك ينتقل بخاطره إلى هذا الحيوان العجيب فهو ساكن رابط الجأش على عكس الخيول يقطع لجج السحاري التي لا تنتهي بنير أن يقف ودون أن يأكل أو يشرب . لا يؤثر فيه التعب أو أنه يتحملة صابراً . وإذا مرض كتم مرضه لا يبيده وقائده الذي يسمع من بعيد زئير الوحوش وصهيل الخيول وأصوات الناس لا يسمع وهو على قيد خطوة منه غير شبيهة وزفيره دون شكوى أو أنين ، حتى إذا أفهمك الجهد وغلبه الألم وأومى جلده الحرمان وشعر بأنه موف على الهلاك هوى إلى الأرض ومد

أحس أنني لم أعد مادة بل ممسّى . لا يشغلني عنه شاغل من أمور الدنيا ولا يستهويني بريق ضلالها وباطلها . على أنني لم أبلغ هذه المرتبة إلا بعد جهاد عنيف مع حواسي ، وحرب طويلة بيني وبين نفسي . والحمد لله على أنها ماتت . لقد ماتت . إنها ماتت . الله أكبر الله أكبر : لا إله إلا الله

وكان يردّد ذلك بصوت عال ، وقد أخذ يدور في الغرفة وجسمه ينتفض وبصره زائع ، ثم سقط وقد غاب عن صوابه وتصلبت أطرافه ... فأسرعنا إليه ننفخ وجهه بالماء والخل ونذلكه بالكحول ونحرك أطرافه برفق ، حتى إذا عاد إلى صوابه وفتح عينيه تملكه الغضب وأخذ يصيح : لم أبقتهموني ؟ لم تذكروني وشأني ؟ إنني كنت في الحضرة القدسية ، وقد ارتفعت من دوني أستارها وغمرتني أنوارها ... والله لا ضمّني وإياكم مجلس . ثم انفلت من بيننا وصدى تكبيره وتهليله يصل إلى أسماعنا ثم يضمف شيئاً فشيئاً حتى انقطع

وكان حسن افندي يملك غير أطيانه قصرآ في الزمالك أعده لأسرته ، ومنزلاً بالجيزة يطل على ترعة السواحل قريباً من محطة السكة الحديدية ، وهو قديم شيدته أجداده ، وكان يقيم به ويستقبل في فئانه الفسيح إخوانه في الطريقة ، فكان في أغلب الليالي وبخاصة في ليالي الحضرة يمج بهم وتدوي أصواتهم في أركانه بالصلوات والأذكار

على أنه للترويح عن نفسه كان في كل أسبوع يستقلّ عقب صلاة العصر ترام الأهرام إلى كازينو مدينة الجيزة ، حتى إذا استراح به بعض الوقت صعد إلى الصحراء يستنشق هواءها قليلاً ثم يعود

ولكني سمعت صوت مزاركم عند الأهرام فشغفني
فجئت

— أهلاً وسهلاً ! يا مرحباً يا مرحباً !

— وهل هنا مقامكم دائماً ؟

وعند ذلك ضحك الشيخ وقال :

— كلا يا سيدي . إننا قوم رحل نطوى
الأرض ولا نقيم حيناً نخط إلا مقدار ما نأخذ
قسطنا من الراحة . إنك ترى هناك وسائل عيشنا
نطرق الحديد ونطلى النحاس . ومن أولادنا من
يحسن السير فوق الجبال المشدودة والوثب والدوران
في الهواء وغير ذلك من الألعاب البهلوانية كما أن
منا من يطوف بهذا القرد وذلك الجحش أزقة القرى
التي تستقر في ضواحيها . على أن من ناسنا أيضاً
من يجدن قراءة الحظوظ بالودع ...

— بالودع ؟ ... أنتم إذن ... ؟

— قاهما يا سيدي ولا تخف ... إننا من النور
من هؤلاء الذين يصب أهل المدن عليهم صواعق
احتقارهم ومقتهم ، والله وحده عليم بما تنطوى عليه
نفوسنا من الوداعة والأنصاف ، ورعاية الجميل ؛ لا تقبل
الضيم ولذلك ليس لنا وطن يأوينا ويقيدنا ، ونهم
على وجوهنا في طلب الرزق طليقين لأننا نعشق
الحرية ونقدسها . أما سخط أهل الحواضر علينا فلأن
فريقاً من الناس — وليسوا منا — يمشون
ويسرقون تحت ستار هذا الاسم الذي يضم طوائف
النور جميعاً في الشرق وفي الغرب ...

— وفي الغرب ... ؟

— نعم وربما أدهشك أنني أجيد اللغة التركية
وأنكلم الأسبانية قليلاً لأنني طفت في شبابي
بالأندلس وبالأناضول واختلطت بالنور المتجولين

عنه فوق الرمل ثم أغمض جفنيه مستسلماً لمصيره
كان حسن يلمس عظمة الله في السماء وشموسها
والأرض وما فوقها وما في جوفها وما في نفسه وما
هو دونها وهو يقول :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

واقعد سرقه جمال الطبيعة وسجرتها فكان يسير
أمامه لا يلوى على شيء . حتى إذا ابتعد عن الأهرام
وأحس التعب فكر في العودة لولا أن صوت مزار
(أرغول) طرق أذنيه وهو يظهر ويختفي في تموجات
الريح ، وكأنه أنه حزين تشق سكون الليل ، فقام في
نفسه أن يقصده فلم له حفلة ذكر قامت في وسط
الصحراء ، وتحت قبة السماء الصافية بميدة عن
ملاهي المدينة وشروورها

وأخيراً بلغ مكان الصوت فإذا به صورة
مصغرة من قرية متقلبة متواضعة تتكون من ستة
أخبية من الشعر على مسافات متقاربة وقد انتثر
من حولها فرسان وبعض حمير وعدد من خراف
ومعز غير قرد وكاب كان ينبس عند قدومه . وعلى
مسافة غير بعيدة عربية كبيرة يظهر أنها معدة للنقل
ولما دنا من أهلها حياهم فنهضوا لتحيته ثم
أعدوا له فرواً غزير الصوف جلس عليه . أما رئيسهم
وهو شيخ أبيض اللحية طاعن في السن فصاح
ليمدوا له القهوة . وكانت البقعة تموج بالرجال
والنساء والأطفال يستمعون إلى صوت الزمار ، كما
أن فتاة حلوة القصات في المشرب من عمرها كانت
ترقص على صوته ، فلما وقع بصرها عليه فرت لتختفي
خلف تلك الأخبية

— شرفت يا حضرة الأفندي

— الله يحفظك . اعلى لا أكون ثقلت عليكم .

لا تتصور كيف يطيب الزواج عند نفسين يقوم بينهما
سد من الكراهية والبغض
وكان حسن أفندي يتألم في نفسه ويستغفر الله
في سره ، ولكنه مع ذلك أكبر هذا الرجل وأعجب
به فنهض وهو يقول : ليت يتيسر لي الاجتماع
بك مرة أخرى . ومع ذلك فلم لا تشرّفتي أنت
بزيارتك ... ثم دله على منزله وحيا . وكان الشيخ
قد أعد له إحدى الفرسين واثنين من رجاله يرافقانه
ولكن كم كانت دهشته لما بلغ الكازينو وقد رأى
سوسن .. أمامه !

إذن هي لم تنم كما أوصاها أبوها . ولعلها كانت
أيضا تنصت إلى ما دار بينهما من الحديث . ولكن
ما الذي دفع بها إلى تعقبه ؟ ألعلمها أرادت أن تنزع
عينها بسحر ذلك الليل القاتم ؟ ولكنها كانت تنعم
به أيضا وهي إلى جانب أبيها . ومع ذلك فقد كانت
وهو يصعد إلى عربة الترام واجهة مشدوهة تكاد
عينها تفلتان ما حبسته فيهما من الدمع ، وتكاد
صرخة الألم المكتومة في صدرها تنطلق من شفثتها
ومرت به كذلك حادثة برعى معها وانصرافه
ذليلا من لندن حضرة أبيها ، ولكنه كان يكره المرأة
ويجهل معنى الحب ومعنى المذاب فيه ، ثا كان يشعر
بما شعر به ذلك الفتى من الحزن ولا بما كانت تحسه
من النشوة وقد أصبح فؤادها طليقا
كانت هذه الخواطر تتراحم في نفسه على أثر
وصوله عند منتصف الليل إلى داره . ولكن التعب
الذي عاناه كان فوق احتمالها فأنحدر إلى فراشه
واستسلم للنوم

وكان حسن أفندي يحرص على أداء الفروض

فيهما . بل ربما أدهشك أني أنكم بلغة عربية
لا عيب فيها لأنني حفظت القرآن صغيرا وقرأت
الكفراوى والأشعوني بالأزهر ، بل إن ابنتي اتقرأ
وتكتب لأنني علمتها . ولو لم يمت أبي لكان لي اليوم
شأن آخر . وهكذا اضطررت إلى أن أخلفه على
هذه القافلة

وعند ذلك انطلقت من خلف الأخبية صرخة
شقت الفضاء لغتت الشيخ ومن معه وإذا بسوسن
ابنته (وهي تلك الفتاة التي كانت رقص) تعدو حتى
ارتعت في حجر أبيها وهي تقول : ألم أقل لك وله
إنه لم يمد زوجي ؟ ثم انهمات دموعها فأخذ يلاطفها
ويداعب خديها بأصابعه النجيلية ويقول : نعم ياسوسن
لقد طلقته فلم يمد له بك صلة . طيبي نفسا واقصدي
إلى الخباء فنأى ، وعند ذلك مسحت دموعها بطرف
نوبها وصعدت بأمره . أما هو فنأى على ذلك
الزوج (واسمه برعى) وأنبه وحذره من الاستمرار
في غوايته وإلا طرده . فتراجع مخذولا حزينا ثم
اختفى . وبعد ذلك التفت الشيخ إلى ضيفه وكأنه
أدرك ما يتردد في نفسه فقال : إن الزواج عندنا سهل
ياسيدي يكفي فيه رضى الطرفين وشاهدان منا

— حسنا ، ولكن هذا الطلاق ... ؟

— والطلاق عندنا حق لها . ألم تجز الشريعة
أن تكون العسمة بيد الزوجة ؟ لذلك كان جائزا
في طائفتنا التي نشأت على المساواة والحرية . وهكذا
لا يتحكم الزوج في امرأته وهو يرى نفسه مهذبا
بهذا الحق فيجتهد أن يصون علاقته معها بالاحسان
والحب !

— وإذا كرهها أو كرهته ؟

طبيبي عندئذ أن يستعمل كل حق ، فانت

فيئزه طرف خياله في محاسنها ويؤمن بالله وعظمته في صنعه . ولكنه يكون قد انتقل بها هذه المرة من صفاء الروح إلى كثافة المادة

ثم يذكرها حين لحقت به وهو بهم بالعودة والدموع حيرى في عينها وهي حزينة خاشعة لأنها أعجبت به ومال قلبها إليه ، فيشعر كأنها أخذت تهبط رويداً رويداً إلى أعماق نفسه . ولكنه يذكر أيضاً موقف ذلك الفتى اليائس معها وما أصابه من الانكسار والدلة عندها فيقول : سبحان الذى أذله بها وأذلها بي . ولكنه يعود فيخيل إليه أن شيخه الذى عاهد على التقوى عند رأسه ينظر إليه شيراً ويؤنبه على ما فرط في حق الله فيئته مذعوراً وقد انتفض جسمه وضلت نظراته ، ويدرك أن الشيطان إنما يوسوس له ليخرجه من رحمة الله كما أخرج آدم من جنته فيعود باللوم على نفسه الأمانة بالسوء ويسارع إلى البكاء والندم والاستغفار

وظل حسن افندى على هذا أياماً ينساها ثم يحن إليها ، ويصرف نفسه عنها ثم يعود إلى ذكرها ، كأنها حى متقطعة تذهب وتعود ، وكأن لصورتها مداً وجزراً فلا تكاد تنحسر عن خياله حتى تطني عليه إلى أن جاء يوم دخلت عليه فيه وهى تتخطر كالنصن فانفجرت أساريره وأشرق وجهه وقدمد إليها ساعديه ليضمها إلى صدره وهو يقول : تعالى يا مستودع شقائى ونعيمى ، ويا خيال بقظتى وحلى ، لم أخلف أبوك وعده فلم يرنى ؟

قالت : لقد انتقلنا إلى مقربة منك . أنظر . ثم أخذته إلى نافذة قليلة تطل على فضاء استقرت القافلة في وسطه ، ثم قالت : ولكننا لن بطول بنا المقام هنا فقد عزم أبى على الرحيل مع الصبح غداً ؛ ولهذا

في أوقاتها ولا سيما صلاة الفجر . ولكنه لما استيقظ كان النهار قد ولى ودخل الليل ، وهو مع ذلك لا يستطيع الحركة محطاً خاطراً كأنه يرزح تحت حمل ثقيل ، وكانت أعصابه مشدودة وخوابره مفككة . على أنه نهض أخيراً وصمد إلى سطح الدار فرآى القمر يبدو قرصه عند حدود الأفق ولكنه لم يابه له وهو الذى حين رآه بالأمس انتقلت به نفسه إلى قدرة الله وعظمته ، ثم مدَّ بصره إلى الغرب فإذا بالأهرام تلوح أشباحها الشاحخة من بعيد ، فتذكر الليلة الماضية ورحلته إلى تلك القافلة وتذكر ذلك الزمان الذى كان يعرف على نقرات الدف وتلك العصابة التى كانت ترقص كأنها عروس الصحراء

وعند ذلك انبسطت نفسه واستقرت خوابره وأحس ديبياً يجري في جسمه ، ونشوة تتمنى في مفاصله ، وهو لا يهتدى إلى سبب ذلك . ولكنه يعود فيذكر تلك الفتاة الجميلة الرشيدة اللبنة فلا يشعر نحوها بتلك الكراهية التى تناولت في عينيه كل بنات حواء . بل إنه كان يجد فيها دليلاً ناطقاً بمظلمة الله . وهكذا ينتقل بتلك المظلمة من الكون بأمره إلى تلك الفتاة التى أصبحت شغله يراها إذا نام وإذا استيقظ وإذا صلى وإذا سبح ، وهو على كل حال سعيد راض ما دام أنها صارت وسيلته إلى الاتصال بالله ...

غير أنه يعود فيذكرها وهى ترقص ، وقدها يتثنى كالخيزرانة وردفاها يترجر جان كأنهما الموج ، ونهداها بطلان من فتحة قميصها كأنهما هرمان صغيران ، ثم يتدرج إلى عينها وما تشعانه من سحر الفتنة ، وإلى أنفها الحلو الدقيق ، وشفتيها القرمزيتين الشهيبتين ، وابتناسمتها التى يتسم الوجود كله فيها

... خرجت بغير أن تتردد أو تلتفت قوية
عزيزة وهي التي ليلة تعقبته كانت تفيض عينها
بالدمع وملاحها بالأمسى خائرة ذليلة
ولا ريب أنها كانت تحبته وتهالك عليه وقد
فرغ قلبها من برعى . والطبيعة تنفر من الفراغ ،
فقلبها لن يمش بغير الحب ؛ ولا يفئا عامراً به لأنه
غداؤه وجنته

على أنها لم تكرهه أيضاً ساعة غادرته على تلك
الصورة . وإنما وجدت نفسها بين دافعين من حب
تمكن منها وتقاليده ورثتها واستقرت في دمه . ولو
أنها كانت من غير بنات النور لاحتفظت بحبه
ولسخرت من تلك التقاليد القاسية الجافة وأمامها
من متاع الدنيا ضياع وقصور وحلى ومال وترف
ونعيم ، ولكنها آثرت على كل ذلك أسماها البالية
وحليها الرخيص الكاذب . بل إنها عافت نفسها
أن تزوج من غير قبيلتها بفتى لا يحمل في نفسه
وفي ذمه عاداتها وتقاليدها . ولذلك هان عليها ذلك
الحب ونعيمه في سبيل رعايتها والقيام عليها

ولو أن حسن أفندي كان تأثر خطواتها عند
رحيلها لرأى كيف أنها أسرع إلى خباء أبيها
وارتمت عند ركن منه تتمايل وتئن وعيناها تسكبان
الدموع السخينة وصدرها يرتفع وينخفض تحت
تأثير أنفاسها المتسارعة الحارة ، ولعلم إلى أي حد
هو عزيز على نفسها ، وإلى أي حد هي تحبه وتجوّد
بحياتها في رضاه . ولكنها هان عليها أن تحطم
هناها بيدها على أن تكفر بتلك التقاليد

أما هو فكان عند انصرافها حائراً ذاهلاً وقد
صدمه شرطها إذ يستحيل عليه أن يخضع له أو
يفكر فيه ؟ وله هو أيضاً من كرامة تقاليده ما يقف

أمرعت إليك فقد لا أراك بعد ذلك ... ولكنها
حدثت فيه كأنها تتحسس ما يجيش في صدره وقد
حدثته نفسه أن يخالسها قبله فسبقته إليها وعند
ذلك طوّقها بساعده وضمها إلى صدره فدبت
حرارة جسمها الدافئ فيه واستيقظت الشهوة
المكبوتة في نفسه وقد توترت أعصابه واحتقن
وجهه واتسعت حدقاته وتلاحقت أنفاسه فحملها إلى
منضدة قريبة وقد أخذ العراك المنيب بصطرم بين
فجوره وتقواه حتى تغلب شيطانه فهم بها ، ولكنها
دفعته بساقها إلى بعيد ، ثم ففزت إلى مقربة من
الباب تضحك بملء فيها وتقول : لقد أخطأ حسابك
فما كنا نحن بنات النور لنؤخذ غصباً ، ولكن
إذا كنت إلى هذا الحد تحبني فلم لا تزوج بي ؟
— فقال :

رضيت يا سوسن وستكونين هنا ملكة على
عرش قلبي ، وصاحبة الأمر والهي في هذه الدار
وفي كل ما تملك يدي ، وستفرقين بعد الذي أنت
فيه في الديباج والذهب والحلى ...

ولكنها عند ذلك أشاحت بوجهها عنه قائلة :
مالي ولكل هذا الذي ذكرت ؟ إنني لن أغتير هذه
الأسمال التي على ولن أستعيب عن هذا العقد بغيره
وإن كان من الخرز ، ولا عن هذا القرط وهذه
الدمالج بسواها وإن كانت من النحاس . لقد درجنا
على القناعة . حسبنا بالشمس والهواء والحرية نعماً
نمرح فيه ، ومع ذلك فإن بيني وبينك من فوارق
البداوة والحضارة سداً ... إلا إذا نزلت على ديننا
وعشت معنا كأنك منا . ولكنك لن تفعل فخير
لك ولي إذن أن ننسى ما فات . ثم انطلقت نحو
الباب ...

حداً له واجسه وعذابه ؟ وهكذا عاد فانطرح فوق سريره وغلبه سلطان النوم ، ولكنه كان نوماً قلقاً مضطرباً حتى استيقظ فجأة عند الفجر على ضوءه وجلبه من جانب ذلك الفضاء فأمرع إلى النافذة ولكنه لم يجد للأخبية أثراً . ورأى العربية تنهياً للرحيل بتقدمها أفراد الغافلة ومن خلفها شبح لم يكن غير شبح سوسن لأنها كانت تنلفت إلى جهته كأنها تزود منه وتودعه ، فطارت نفسه جزعاً وأدفع كالسهم إلى الطريق . ثم أخذ يمدو وينادى حتى لحق بها ...

محمد صيرت

« الثامنة »

مؤلفات

الأستاذ محمد كامل حجاج

٢٠ بلاغة العرب جزءان (مختارات من صفة الأدب الفرنسي والانكليزي والألماني والاطالي مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات في الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيلتان)

١٨ نباتات الزينة المشبية (محلى بأحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثاني في جميع المسكاتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا

ما يقف حائلاً بينه وبين الاسترسال في هذا الحب . والتقاليد عقيدة كالدين من خرج عليها كان كالمرتد . ولذلك حمد الله على أن وقف بهما الأمر عند هذا القدر وعلى أن قافلتهما سوف لا تقيم أكثر من سواد ليلة ثم ترحل فلا يعود يفكر فيها ولا يلبث أن ينساها

وفد كان من أسباب الترفيه عنه أن تلك الليلة كانت من ليالى الحضرة وقد أقبل إخوانه فانخرط فيهم وأخذوا يذكرون الله ويتلون الأوراد ويرتلون دلائل الخيرات . ثم انتصبوا للذكر فما كاد يرتفع صوت النأى ويفنى المشد : يامليح المي وحلو التني . حتى انتقل خاطره إلى الصحراء بنصت إلى صوت ذلك الأرغول وهو يثير الحنين . وينظر إلى تلك الفتاة وهي تملأ عينيه بسحر تأودها وتشنها . وعند ذلك ذكر ما كان من أمرها معه فصرخ صرخة هزت المسكان وسقط على أثرها بغير وعى فنقلوه إلى غرفته ثم انصرفوا وهم يهالون وبكبرون لأن روحه الصالحة النقية فازت بالخطوة عند الله وتجلت عليها أنوار السماء ...

ولم تلبث هذه الفشة قليلاً حتى أفاق فأخذ يبكي كالطفل وقد أدرك أن حبها قد تمكن منه وأن علته بها أصبحت بحيث لا ينفع فيها طب ولا بصرفها عنه صلاح أو تقوى . وعند ذلك انتقل إلى تلك النافذة فإذا بالسكون شاملاً وبالخيام التي كانت تموج بالحركة ساكنة هاجمة فيجدق فيها كأنه يتبين أيها تحوى تلك القاسية التي نعم جفناها بالنوم وهو بعيد عنه

ولكن لم يواصل التفكير فيها وقد انقطع كل ما بينهما ، ولم لا يحاول النوم هو أيضاً فيضع به

ساهرة ... إلا عين سيد غريب
يذكره هذا الليل الساجي ،
وهذا البدر المثل ، بلده وجبيه
فيؤرقه الشوق ، فهو يطوف
بهذه المربع ويده على قلبه ...
وعيوناً أخرى خلال هذه
البيوت البعيدة التي تسكن فيها

الذيلة وراء هذه الأضواء الكليّة التي ترتجف من
الحجل ، وهي تضرب بأشعتها نائمة وسط الفضاء
حيث يجلس على العتبات فتيات بائسات يعرضن في
استحياء أجساداً عارية تطفح بالشهوة ... ينتظرن
عابراً يسوقه القدر إلىهن فيمنعه اللذة ، ويطمعنه
من لهن ... ليمطين دراهم يحملنها إلى أسيادهن
الذين بكرهنهن على البغاء ، ولا يكون نصيبهن
بعد ذلك إلا أرغفة من الخبز ممجونة بالدم والشرف
والوحد ...

تلك هي سنة قوم لم يتأدبوا بعد بأدب الاسلام !
فلما مال ميزان الليل ، وغلبت التعب ، ولم
يطرقهن طارق ، تسلن إلى بيوتهن فنمن على فرش
العار ، إلى الصباح ، ليستقبلن من يقذف به القدر
اليهن من الرجال ... ولم يبق إلا فتاة صغيرة ، تنظر
إلى السماء بيمين زرقاوين بلون السماء ، تفيضان
بالطهر ... رغم أنهما في وجه بني ، ولها قم صغير
حلوي نطق بالصفاء من غير أن تتحرك شفاه الرقيقتان ،
وكأن هذا الفم ورده من ورد الجنان الخالدة ، غير
أنها لا تذوي ولا تذبل ، وأنها من لحم ودم ، وأنها
تشم بالفم ، وتلمس بالشفاه ... وأنف إغريق جميل
كأنه أنف فينوس ، وشعر أشقر متموج يبرق

من التاريخ الإسلامي

ابن الحب

للأستاذ علي الطنطاوي

(الطائف) ... تلك القرية المسجورة التي
سارت ذات يوم — كما تروي الأساطير^(١) —
سارت من ربوع الشام بينا بيها وجداولها وبساتينها
ورياضها وزهرها ونورها فطافت حول الكعبة ،
ثم تسلقت الجبال حتى استقرت في أعلى جبل
(غزوان) ، وهجمت على سرير من السحاب حاملة
بالسهول والأنهار والنمة والخصب ، لتستيقظ مع
الفجر فتصنع العطاء والقادة ، وتقذف بهم إلى الدنيا
الواسعة ...

(الطائف) ... مدينة الحجاج ...

نامت (الطائف) في تلك الليلة الساكرة القمراء
ولفها الليل بغلالة رقيقة ، يتغذى من خلالها شمع
القمر فيبدي محاسنها الفاتنة ، ويحسر عن بيوتها
الختفية بين الأشجار كأنها أسراب من المشاق قد
تغافلت في هذه البساتين ، لتنفذ إلى عزلة سعيدة ،
تنعم فيها بذكرى اللقاء الماضي ، وتحلم بلقاء جديد ..
وأوى الزراع إلى بيوتهم فناموا بين أهلهم ، كما نام
الرعاة إثر نهار حافل بالنجوال الفاتن في هذه الجبال
الكاسية بالمشب والزهر ، ولم يبق في المدينة عين

(١) راجع (البياض) في (معجم البلدان)

فصبتها على قارعة السبيل تلغ فيها السكّاب ... إنه
بصرتها كما يصرف دابته ، ويصنع بها ما يصنع
شوبه يلبسه أو يرميه في الطريق ، أو يهديه إلى
صديق ، أو يرضى له التحريق والتمزيق ... وذكرت
عرضها الذي مضرته مطامع سيدها - وجسدها
الذي أبلته وحشية الرجال طلاب اللذة ، من كل
شكل ولون ، فانطلقت تبكي ... وذهبت هائمة على
وجهها ، حتى انتعدت عن هذه البيوت ، وإذا هي
بشبح يسير في شعاع القمر ، متشجاً بشوب أسود
لا يبين منه شيئاً ، فظنته من رجالها ... ومشّت
إليه ... فلما رآها ارتاع وارتد ، وعجب أن يرى فتاة
صغيرة كأنما هي حوراء من حور الجنان تسير عارية
تحت ذوائب الليل ... وسألها : مالك أينها الفتاة ؟
— مالى ؟ ماذا ترى فى ؟

فلم يحب وجمل يحرق فيها تحديقاً شديداً ،
مأخوذاً بجمالها ، وهي تنظر متعجبة لأنها كانت من
السداجة والصفاء بحيث لا تدرى جمالها وفتنتها ،
ولأنها لم تجد من الرجال من يرفع عينيه إلى وجهها ،
وإنما وجدتهم جميعاً يخفضون عيونهم إلى غير الوجه ...
فما بال هذا الرجل ؟

ومرت دقائق حسبها كل منهما دهرأ طويلاً ،
ثم قال لها بصوت حلو رقيق ، وقد أشفق عليها أن
تنال برودة الليل من هذا الجسم اللدن الناعم الذى
خلق لينعم بدفء الحب :

— لم لا تدخلين إلى دارك ؟
فأجابته هذا الجواب الذى ألفته حتى ما تفكر
فى معناه ، ولا تدري منه إلا أنه واجب عليها تؤديه
كآلة جامدة :

— بمشرة دراهم ... هل تدخل ؟

تحت أشعة القمر كبريق الذهب ، وجسم أبيض
لبن ، له لون العاج ، ولين الحرير ، وسحر الحب ،
وقمل الخمر ... فهي وردة نمت فى غير أرضها فزادت
إلى جمالها جمال الندرة ، وهى ملك هبط من سمائه
فوقع فى هذه البقعة الممتلئة بالرجس . ولو أن للحياة
أسلوبنا نحن البشر وتفكيرنا لكان مكان هذه الفتاة
بين ذراعى أم تضمها إلى صدرها الفياض بالتضحية
والاخلاص ، أو زوج يذيقها الحب والوفاء ، وبكم
سر هذا الجال أن يفسو ويستملن وتميت بقدسيته
العيون السارقة ، والأيدي المجرمة ... ولكن الحياة
لم تر لها إلا هذا المكان الذى تمرض فيه الأجسام
البشرية لكل وحش بشرى ... أفرأيت الزهرة
اليانعة تلقى بين أسنة اللميب ؟ والحمل الضعيف يرى
بين أنياب الدئاب ؟ كذلك كانت هذه الفتاة وقد
قذفت بها الحياة بين ذراعى كل وبش فظ غليظ
من ذئاب البشر وكلابهم ... هي زهرة ، ولكن
الرياح العاتية قطعتها من غصنها ثم أنقها بين الأشواك
البرية اتجف عليها وتذوى ؛ هي وردة ولكن النهر
الجياش اختطفها من منبتها ثم رى بها فى الحقل
لتموت تحت أرجل البهائم والبشر ... هكذا صنعت
بها الحياة . إن للحياة أسلوباً لا نعرفه ، ولا تصل
إليه مداركنا البشرية ...

لبثت هذه الفتاة جالسة تطارد النوم الذى يعيث
بميلها الناعستين من غير نعاس ... تأمل أن تجد
امراً يدفع إليها المال الذى فرضه عليها سيدها حين
أرادها على هذه الحياة الداعرة ... فزلات على إرادته ،
وجملت جسدها مائدة لكل جائع ... وهل تستطيع
له مقاومة وهى أمته وملك يمينه ، حملها من وطئها
البعيد فهل من كأس جمالها حتى شبع وروى ،

وتذوق للمرة الأولى لذة القبلات المعسولة ،
التي تخرج بها النفسان وتتحدان ، وتمرف حرارة
الصدر المحب ، وحلاوة العناق اللذيذة ... فتأق بفسها
على صدره ، ونمخ للمرة الأولى قلبها وجسمها معاً ..

ولما خرجت تشيمه كان الليل قد تصرم وبدت
طلائع الفجر من وراء الصخور ، تنسل الأرض
بالنور ، بمد أن خلعت عنها رداء الظلام . فوقفت
الفتاة تنظر إليه وقد أحست بأن هذا الحب ينسل
نفسها ويظهرها ، وأن الفجر قدسطع على قلبها فبدد
ظلماته ، وتنهت في نفسها ذكريات ماض بعيد
حسبته قد مات منذ زمن طويل فإذا هو حي قد
أكسبه الحب بقظة وقوة ، وطفقت صور هذا الماضي
تتدافق على نفس الفتاة فتبصر صباها الطاهر كشاح
الصباح ، وحياتها في تلك الخائل البعيدة ، في أرض
فارس ، كفراشة تطير خلال الورد ... ولكنها
لا تتبين هذه الصور ، ولا ترى منها إلا خيالات
ضعيفة . لقد مشت عليها السنون فحنتها بأقدامها ..
ثم تفكر في حياتها الحاضرة ، التي تخوض حانتها
الدنسة ، وتمرض لها صور هذه الأجساد البشعة
القدرة التي مست جسدها ، وعانقته وقبست منه
لذتها ، فيمروها ارتجاف شديد ، وتوارى وجهها
بكفها حياء وخجلاً ... ثم تذكر هذا الحب الذي
مس قلبها بكهربائه فأضاءه وزكاه ؛ فتعزم على التوبة
لتصل ماضيها البعيد الطاهر ، بمستقبلها الذي طهره
هذا الحب الوليد ...

وبرغت الشمس ولم يدمض للفتاة جفن .
فدخلت منزلها تستريح وإذا هي برجل يدخل عليها

ووثبت بين يديه تسمى إلى الدار بخفة ظلي أقلت
من شبكة الصياد ، وتبعها حزينا متألماً يفكر في
هذا الجمال الطاهر كيف تقوي الرذيلة على تدنيسه ،
ويأسى لها ، ويتمنى لو استطاع أن يسمو بها إلى أفق
الطهر والمغاف ... حتى بلغت الدار ، فدخلت ودعته
إلى الدخول ثم أغاقت الباب ، ووقفت بين يديه
تنظر ما يريد ... يا لهذه المسكينة التي عاشت وسط
الرجس ولكن قلبها ظل نقياً طاهراً ، لأن الخطيئة
لم تصل إليه ... فلم يبد الرجل حراكاً ، فجعلت
تنظر إليه حائرة وقد بدأت تخشاه وتظن به الظنون .
ماله لا يصنع ما يصنع سائر الرجال ، يأخذونها عارية
كشماع القمر ، فيمبثون بها ، ويسخرونها للذاتهم
كأنما هي أداة لا تعقل ولا تشعر ، ويضطرونها إلى
فتح صدرها وشفيتها لقبحهم ووحشيتهم وأقذارهم ،
ثم يلقونها بمد أن تسكل أجسادهم الجشعة ، كما يلقى
الره برتقالة امتصها حتى لم يدع فيها إلا قشرة ممزقة
خالية من الماء ...

ماله لا يفعل شيئاً من هذا ؟ إنه ينزع ثوبه
فيلقيه عليها يحفظها من برودة الليل ، فيبدو من
ورائه شبابه وجماله ، وثيابه الحريرية الغالية ، ثم
يأخذها برفق ويجلسها على ركبتيه ، وينطلق يسألها
عن أصلها ومنبتها في لطف ودعة ... ويلقى في أذنها
أحاديث الحب السامي التي لم تسمعها من قبل ، فيجني
في نفسها الطهر والفضيلة ، ويفسها من أدراة هذه
الحياة الداعرة ، فتحس كأن جناحيها اللذين
حطمتها يد الأيام قد نبتا من جديد ، ونحس بأن
هذا السيد الذي هبط عليها هذه الليلة هبوط ملك
الرحمة ، يطير بها في آفاق لم ترها بمد . ولكنها آفاق
واسعة كلها نور وعطر ...

— أتحب أن تعرف من أنا؟ اقترُب لأخبرك
ويبقى في أذنه ذلك الاسم الكبير ، فتسقط
يد بكر على جنبه ، ويمتدح لهذا السيد ، ثم يخرج
يأساً بفنش خلال البيوت عمن يبعه اللذة .
ويأخذ هذا السيد بيد الفتاة إلى دارها التي
أعدّها لها ...

وعقد الحب رباطه المقدس بين قلوبهما ،
فأصبحت هي حياته لا يعرف الحياة إلا ساعة يكون
معهما ، واختصرت دنياه كلها فكانت نظرة واحدة
في عينها ، وملأت نفسه هذه الفتاة التي ظهرت له
نخلة ، كما تظهر الشمس نخلة من وراء الجبل فتملأ
الوادي نوراً وحياة ...

لقد نسي هذا السيد المجد الذي ينتظره في مكة
والمركة الكبرى التي ترقب فيه قائدها ومديرها .
ذلك هو الحب ، أقوى كائن وأعظم مخلوق ...
يستطيع الحب أن يمحو من النفس صورة المجد
والجاه ، والفضيلة والذيلة ، والطموح والحسد ،
ولكن لا يمحوه شيء ...

الحب أحجية الوجود ، ليس في الناس من لم
يعرف الحب ، وليس فيهم من عرف ماهو الحب ..
الحب مشكلة العقل التي لا تحل ، ولكنه
حقيقة القلب الكبرى ...

الحب أضف مخلوق وأقواء ، يختبئ في النظرة
الخاطفة من العين الفاتنة ، وفي الرغبة الخفيفة من الثمر
الأغنية الشجية ، وفي البسمة المومضة من الثمر
الجميل ... ثم يظهر للوجود عظمة جباراً ، فيبني
الحياة ويهدمها ، ويقم العروش ويثلمها ، ويفعل في
الدنيا الأفاعيل ...

يبتنى أن تمنحه اللذة فتأمل في وجهه فإذا هو
بكر الثقة أشد شباب الطائف وأقوام ، فيرعبها
مشهده ، ويروّعها كأنها هي عذراء لم تفارق خدر
أمها ، فتبتعد عنه مضطربة ... فيمجيبه ذلك منها ،
ويظن أنها تداعبه ، فيبالغ في الاقتراب منها ويأخذ
بيدها ، فتحس لمسه كأن حية سوداء قد التفت
على عنقها ، فيقشعر جسمها كله ويقف شعر رأسها
وتصرخ به :

— ابتعد عني ! فيضحك الرجل وبكر
من الضحك ، ويشد على يدها ليجذبها إليه ..
فتعود إلى صراخها ...

— ما للفرجال نافرأ هذا اليوم ... تعالى

— قلت لك دعني ... دعني ... لست لك

فيصيح بها ساخراً : إن أنت إذن أينما العذراء
البتول ؟ الزوجك ؟

ويوغل في الضحك ويضمها إليه فتلطم وجهه
وتوغل في الصراخ ، فينضب الرجل ويقسو عليها
— ألم تقل لك إنها لا تريدك ؟

صوت هادي مترن ، جمل بكر أرسل الفتاة
ويلتفت إليه ، فيرى سيداً كامل الشباب ، موفور
الرجولة ، بثياب غالية تشر بالسيادة والذي ، وتطمئن
الفتاة وترى فيه حبيبها ومنقدها . ثم يحالطها الخوف
عليه لأنها تعلم أي رجل هو بكر ، ذلك الذي لا يقوم
له شاب في هذا البلد ولا كهل ، وتنتظر نهاية هذا
المراك ، وقد أعدت نفسها للدفاع عن حبيبها
وبصيح به بكر مفضياً :

— من أنت أيها الرجل الذي يتجرأ على بكر الثقة ؟
ويرفع يده عليه ، ولكن الرجل يقبض على
ذراعه ، ويقول له هادئاً :

أو ينفخون في الناي تلك النغمة الغائنة التي يتوارثها
الرعاة جيلاً عن جيل فلا يفقدها التكرار حلاوتها
ولا جمالها ، فإذا انبسطت الشمس وتصرمت
الظلال أويًا إلى الدار فماشاً روحاً واحدة في
جسمين ... حتى إذا وقفت الشمس للوداع خرجا
مرة أخرى إلى الصخرة يودعان الشمس ، فينظر
كل منهما بأربع عيون ، ويهمس في أذنيها وهي
في حضنه ، صدرها إلى صدره ، وخدها مستريح إلى
خده ، بأناشيد الحب العذبة فتسمعهما بروحها
وتجيب عنها بأغنية عينيها ، حتى تغيب الشمس وبقى
الليل ذوائبه السود على الدنيا فيعودان

الحب ربيع الحياة الزهر ، ولكن الربيع ينتهي
ويأتى الصيف بحرارته ، والحريف بشحوبه ، والشتاء
بزمهره ، ولا بد أن ينتهي الربيع : أيام الحب كأمس
مترعة بالخمرة الآلهية ، ولكن الكأس تفرغ
ويحس الإنسان بالظلم ، ولا بد أن تفرغ الكأس !
عاشا في ليالي الحب ما عاش الصيف ، فلما بدت
طلائع الحريف وغمرت الطائف وصخورها ، وعلا
صوت الواجب من بطن مكة يدعو هذا السيد ... لم يبق
بداً من الفراق ... إن الحرب تدور هناك وراء هذه
السفوح البعيدة ، يخوض قومه لظاها أفيق في
نجوة من لظى الحرب ، وهو السيد الشريف
والفارس المعلم ؟ أيتقلب قومه في غمار المعركة المشتعلة
ويتقلب هو في أحضان امرأة يقطف من عينيها
السحر ويذوق من فمها الخمر ؟ لو أن رجلاً من قریش
لم يكن في المير ولا في النفير رضى بهذا الفرار
لسكان له سببة الدهر ؛ فكيف بسيد المير وبطل
النفير ؟ لم يبق بداً من الفراق ... فليعزق قلبه

كانا يلتقيان دائماً فيتحدثان عن ماضيهما
وحاضرها ، ويكشف لها من أسرار قلبه مثلما تكشف
له من أسرار قلبها ، فكان هذا التكاشف طريق
الوحدة ، والغناء في الحب ، حتى إذا لم يبق لأحدهما
سرٌ يكتمه عن الآخر لم يبق له (أنا) ينفرد
بها عنه ...

لقد طهرها بحبه ، وصهر ماضيها الملوث فأحاله
بنار الهوي جوهرًا خالصًا ، ورفعها من الحضيض
الضيق اتدى كانت تتقلب في ظلماته إلى سماء عالية
رحبية . وليس كالحب إذا خلص مطهرًا للنفوس ،
ومصلحًا للأمم ، وحاذراً إلى الفضيلة ...

الحب مدرسة الله الكبرى ، وقانونه الأقدس
لولا الحب ما أشرقت الشمس وغمرت الأرض
بنور ربها ، ولا منحتها الحياة والنور . ولولا الحب
ما التفت القمصن على الفسفن في الغابة النائية ، ولا
عطف الطي على ولده في السكناس البعيد ، ولا حنا
الجل على الوادى المتعزل ، ولا أمدّ القبوع الجدول
الساحي نحو البحر . ولولا الحب ما بكى الغمام لجذب
الأرض ، ولا ضحكت الأرض بزهر الربيع ، ولا
كانت الحياة ...

كانا يخرجان كل غداة حين تبسم الشمس بسمتها
الأولى ، فيجلسان على هذه الصخرة المنفردة المطلة
على البساتين القريبة ، والقفار البعيدة ، فيشاركان
المصافير غناءها ، والورد ضحكة ، والنسيم همسه ،
والنور طهره وصفاءه ، فيتحدثان ويتناغيان كحمايتين
ضمتهمما وكر ، وهما ينظران إلى الرعاة يسوقون
أغنامهم نحو السفوح الماشية يغنون أغانيهم الساحرة

فهجت فيها الأمواج . لقد أورتك الألم ... والألم
حصاد الحب ، فهل تغفرين لي ؟
أى ألم يا حبيبي ؟ أنا سميدة ... سميدة جداً .
وانطلقت تقبله في فمه ...

— ولكن الواجب يدعوني إلى الذهاب ...
— بودى ألا أذهب ، وأن أبقى معك أبداً ،
ماذا يصنع الانسان يا حبيبتى ؟ .. أنحين أن يقال
أنى فررت من المركة ؟
— وأنا ؟

— سأعود إليك ، أحلف لك أنى سأعود ...
— وهذا الذى فى أحشائي ؟
— ماذا ؟ ماذا تقولين ؟ أنت حامل ؟

— نعم

— آه . إبني !

واستطاره الفرح فأقبل يضع قبلانه من وجهها
وعنقها حيث تباغ شفتاه
— ليتنى أبقي حتى أراه . ليتنى أبقي . هذا
إبن الحب ...

— إبقى ، إبقى ، أنوسل إليك ، ماذا تخشى ؟
— أخشى المار ، أنها سببة الدهر ، فدعيني
أذهب . سأعود إليك ، أفتنسيني إذا أنا ذهبت ؟
أتلقين بنفسك فى أحضان غيري ؟ لا لا ، إنك لن
تنسى . إنك ستقومين على تربية ابننا . ستنشئنه على
العظمة والمجد ، ليكون رجلاً يحمل قسطه من إرث
أبيه ... وإذا سألك عن أبيه فلا تخبريه من هو أبوه .
دعيه ينشأ مستقلاً كالزهرة المنبثقة فى الجبل ، ويهش
حرراً كالطائر الذى يغرد على كل غصن . لا تخبريه
من هو أبوه ، بل أعديه لفهم هذه الحقيقة ، حتى
إذا صار أهلاً لفهمها ، وغدا كفوا لجل هذا الاسم

شطرين ، فیدع شطراً فى هذه الأعلى المحضرة
الساحرة يحلم بالحب ، ويتجرع غصص الذكريات ،
ويذهب بالشطرن إلى ميادين المجد ليألم فى سبيل الوطن
ويحمل جرحه الدامى ليأسو جرح أمته ، ويضحى
بالحب فى سبيل الواجب ...
وتهباً للوداع ...

وعاد يزوران مرابع الهوى ومجالس الحب ،
فيودعها ذكرياته وقلبه حتى انتهى بهما المطاف إلى
هذه الصخرة المشرفة على الصحارى النائية ، فجلس
إليها وأخذ فتاته بين ذراعيه بضمها ويخفى وجهه فى
عنقها وخلال ثيابها ، ويشم عبقها كأنما يريد أن
يتزود منها لأيام الفراق . وأخذت هي بنشوة الحب
فجملت تشد يدها عليه وتعبث بشعره ، وترى رأسها
على رأسه ، وتتمنى لو أن هذا الحب يصنع المعجزة
التي ينظرها المحبون أبداً ... أن يحو هذه (الأنا)
و (الأنثى) ويجعل الماشقين شخصاً واحداً كما
جعلهما روحاً واحدة ، وترى وهي بين ذراعيه كأن
بينهما بعد المشرقين ...

وكان عند أقدامهما بستان جميل ، قد خالطت
خضرته حمرة الشقائق الفاتنة فرأته يحدق فيه ، وفى
عينيه دموع ، فراءها ما ترى ، وانطلقت تسائله ...

— اسمي يا فتاتى ...

— أنا سامعة ؟

— أريد أن تغفرى لي ؟

— وم تستغفرنى أيها الحبيب ؟

— لقد كان حبى وبالأعلى عليك . لقد كانت

حياتك ساكنة ساجية كليل الطائف ، فلأهاجى
زمهريراً وبرقاً ورعداً . لقد كانت مثل اللجة الهادئة ،

طفل يرقص في شمع الشمس ، يلعب بالألعاب إلى شيخ يانس يتأمل في الظلام ، لقد نزع ثوب الفرح الزاهي ، وابس ثوب الكآبة القاتم . لقد انحصرت حياتها في أمر واحد هو التفكير في الحبيب الذي أكسبه طول الفكر صورة سحرية بارعة لا يملكها بشر . فكانت تقيس من ترى من الرجال بهذه الصورة التي استقرت في خيالها فلا يعجبها رجل ولا تحفله ... بل لو أنها نظرت إلى صاحب هذه الصورة بشككه الحقيقي لما أعجبها !

أرادت أن تفرق غرامها في لجة العبادة فكانت تؤم معبد قومها في الصباح الباكر ، لتفي إلى صلاة عميقة ، فلا تجد في هذه الآلهة المصنوعة من الحجر ما يشير في نفسها الورع والخشوع ، وتمثل لها مطرقة النحات الذي صنع هذا الآله ... فتمايف عبادة ، ولا يروقها منها ما كان يروقها وهي صغيرة من نار الدهقان الذي نشأت في داره ، ولكنها نسيت عبادة هذه النار . زمن بعيد ، فبقيت حائرة لا تطمئن إلى عبادة

ما أشقى المحبين ! يعيشون كما يعيش الناس ، ويأكلون كما يأكلون ، ولكنهم يعيشون في دنيا لا يعرفها الناس ولا يصلون إليها ، تضيق الدنيا بالحُب إذا جفاه محبوبه حتى ليكاد يختنق فيها على سعتها ، ويجد في المش الضيق الذي يلجأ إليه مع محبوبه دنيا واسعة ، ويتألم الحُب في اللذائذ ، إذا لم يذوقها معه من يحب ... والطبيعة الجميلة سواد في عين الحُب قاتم إذا لم تنرها مقاتنا المحبوب

كان عمل هذه الفتاة أن تطوف كل يوم بهذه المنازل التي ولد فيها حبها ونما . فتبكي وتذكر وتقبل الأحجار والأشجار ، وتسير مع الوم أحياناً فتظن

كنت أنا الذي يخلمه عليه ، وإن لم أكن حياً فسأدع له من يخلع عليه اسمي ...

ووقفت الفتاة تنظر إليه وهو ينحدر في هذا الطريق الضيق ، الذي يختفي حيناً وراء الصخور ، ثم يظهر ويوالي سيره نحو الرمال حتى غاب عن ناظرها ، فتلفت لتقاء البلد ، فإذا هي تنكرها وإذا هي لا تعرف من هذه الدنيا شيئاً بعد أن غابت عنها دنيا الحُب تخفق قلبها واضطرب ، وجملت تنادي حبيبها وتلع في النداء . وتشير إليه وقد غاب عن ناظرها وراء الأفق البعيد . فلما لم تجد مجيئاً تيقنت أنها لن تلقاه أبداً . نغرت على وجهها باكية منتحبة ولم يبق لها من الحياة إلا ذكريات هذا الحُب الذي ولد شاباً قوياً ، ولكنه مات طفلاً صغيراً وهذا المال الذي أبقاه لها الحبيب . تنفق منه على نفسها وولدها وترضى به سيدها ليدعها آمنة مطمئنة إلى حياة شريفة لا تدنسها الرذائل ، فكانت تتألم وحيدة كشمعة تشتعل في الهو الخالي ، وتقهقر نفسها الأحران فلا تجد من تبته أحزانها . لم يكن لها إلا الحُب ، فكانت تمانق الحُب في الليل وتساره في الطريق ، وتناجيه في الصباح ، وتناجيه في المساء وتصحبه إلى هذه الأماكن التي عرفت فيها السعادة ولكنها لا تجد في كل ذلك إلا الألم . إن كل ما ترى يذكرها بالحبيب فيزيدها لوعة ، ومتع ليالي السعادة تستحيل إلى آلام ، فيا ليت الإنسان لا يذكر ، إذن لا تألم ، إن ذكرى اللذة مؤلمة . وذكرى الألم لا تسر .. أو ليس من أكبر النعم على الإنسان أن ينسى ؟ لولا النسيان كانت الحياة لا تطاق !

لقد قوى حبها واشتد ولكنه استحال من

ترتل صلاة المساء، والشمس نائمة على سرير الأفق صفراء، كأنها مريضة غاص رأسها في عشرات الوسائد، ونحن متعانقان صدرى إلى صدرك، وعيناي إلى عينيك، وخدى ملصق بخدك، أقبل عنقك وتمرغ شفتيك بشمري، ثم نهتني إلى مشهد الغروب، فطفقنا ننظر إليه مشدوهين، حتى غبنا في قرارة حلم ممتع من أحلام الحياة ...

أتذكر ... ؟

أتذكر مسرانا في هذه الغابة الصغيرة الملتفة، وقد خلونا فيها وحدنا وتركنا الدنيا بضجتها وصخبها حين نمشي وحيدين ليس معنا إلا الحب الذي يربط بين قلوبنا، نتلفت حولنا فلا نرى إلا جذوع الأشجار المتأنقة، تتسلسل من كل جهة حتى يضل البصر طريقه خلالها، وأغصانها متشابكة من فوقنا كأنها سقف مرفوع ... لم أكن أشعر بالوحدة لأنك معي، وهل كنت أبتغي من دنياي أكثر من ذلك؟ حسبي أنت من الدنيا ... أتذكر ذلك ... ؟

أتذكر تلك الشجرة المتعزلة الوحيدة التي كان لها في تاريخ حي أجمل الآثار؟ أما أنا فساهرة أذكرها وأفكر فيها ...

لماذا أذقتني لذة الحب؟

أقد كنت راضية بالحياة مطمئنة إليها، أعيش في الظلام، فلما عرفت الحب عرفت النور والسمو وعلمت ماهي اللذة ... فلا النور دام، ولا أنا أطيق الرجوع إلى الظلام !

ولست أستطيع أن أعيد كل ما قالت، لأنه مكتوب في كل قصة غرام، وهل الغرام إلا قصة واحدة تتكرر أبداً ولا يمل البشر تمثيلها؟ وهل تمر ليلة على

بأن الحبيب حاضر معها. فتم بمناقته وبثه شكواها ثم تجدها وحيدة، فيجب قلبها ويشد خفقانه، وتستهبط على وجهها فتبكي وتذوب وحيدة لا يدري بها إلا الله، وكانت تأمل أن يعود فتنظره على الطريق وترقب الدقائق فإذا تصرم النهار ولم تره عادت إلى منزلها آيسة محزونة ...

وانتفخ بطنها من الحل، فباتت تحمل أثقال الحب في بطنها وقلبها، وعزفت عن الطعام والنام، فرق جلدها وتهاوت جسدتها، فلم يمد في طوقها أن تطوف بمناسك حبها، ومنازل هواها، فكانت تحيي الليالي ساهرة مؤرقة، تناجي النجم، وتسائل الليل عن حبيبها، وتخطبسه من وراء الصحراء كأنه معها

« أين أنت أيها الحبيب؟ هل تنام الساعة آمناً مطمئناً، أم أنت بين ذراعي غيري؟ قد نسيتني ومحوت من نفسك ذكرى هذه البنى التي طهرتها بحبك، ولكنها لوئت شرفك ومجدك بماضيها الدنس؟ لقد كان حبك لي تقياً كماء السماء، ولكن شهوتي المضطربة عكست صفاءه ... أنا الطائر الضعيف الذي حطم الدهر جناحيه فألف حياة الأرض مع الحشرات والهوام، فجئت أنت من السماء لترفعه بجناحيك القويين إلى السماء، فرفعته حتى استطاع أن يحلق فيها، ولكن هذا التراب الذي ظل عالقاً به قد غبّر جناحك أيها الصقر، أفلا تمفو؟

قد قنمت بك من الحياة، حتى ما أبالي إذا وجدتك ماذا خسرت، ولكن بماذا أقنع وقد خسرتك أنت؟

أتذكر ساعة جلوسنا إلى الصخرة وحيدين، والطير

كان ملء الميول والأفئدة ، تمر السنوات فلا تزيد إلا ذكاء ونبوغاً ... وكان سعيداً ينعم بحب أمه ومالها ، ولكن أمراً واحداً كان ينقص عليه هذه السعادة ، وبؤله أشد الألم ، ذلك أنه لا يعرف من هو أبوه ... وكثيراً ما سأل أمه وأطال عليها المسألة ، ولون لها الأساليب . فكان يمنحها من أن تخبره إرادة أبيه . فتظل معتصمة بالصمت ... وكثيراً ما أمضى الساعات ساهماً واجماً يفكر فلا يهتدي ...

فأزمع أن يكون بفعاله أبا نفسه ... وأن ينزل من هذه الجبال فينحصر في الحياة ...

ظل ذلك السيد القرشي يفكر في الفتاة ويصلها بالسال ويتعرف أخبار ابنه ويقوم سبيله ، ولكنه انصرف عن الحب ولم يعد له في حياته مكان . إن على عاتقه عبئاً ضخماً ، إنه يقود إحدى الفئتين في أعظم معركة عرفها تاريخ الإنسان من يوم هبط آدم من الجنة إلى يوم تقوم الساعة ... المعركة بين الحق والباطل ، بين الحرية والاستعباد ، بين المستقبل المنتظر والماضي الدميم ، بين الحضارة والبداءة ... وكان هذا السيد قائد الفئة المدافعة عن الباطل ، فجال الباطل جولة ثم اضمحل ، فإذا للنور الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بضئ الجزيرة ثم يخرج إلى الشام والعراق ، فتعرف عليها رايات محمد ظافرة منصوره ؛ وإذا أبو سفيان هذا السيد القرشي جندي صغير في جيش محمد ... ذلك أن مقاييس العظمة قد تبدلت ، وأن الدين الجديد لا يعتمد على النسب ولكن على الكفاية ، ولا يعرف الطبقات ولكنه يقر المساواة . فهبط أبو سفيان ، حتى صار

بلد فلا ترى في أحشائه عاشقاً مدنفاً يسهر ويتألم ، بينما ينام الناس آمنين لا يرحمون المحبين ، لأن الحب شيء لا يدري به إلا المحبون !

ولبت الفتاة على عذابها ، حتى أحست بالجنين يتحرك في بطنها ... فذهبت تدفع وحدها تمن هذه اللذة التي شاطرها متعتها الرجل ...

واستهل الوليد جيلاً كالزهر ، حلواً كالأمل ، نقياً كثلج الربا ، تبدو في عينيه كبرياء أبيه ، وجمال أمه ، كما يبدو خيال السماء الصافية في البحيرة الساكنة ، فتنة لثان بهما كما يمتلي الجدول بمياه الينبوع الصافي ، وبترددان فيهما كما يتردد صدى أنشودة الراعي في مسارب الوادي العميق ...

فضمته إلى صدرها الفياض بالحب ، وتذرت له حبها وحياتها ... وعزمت أن تكون له أما لأنه ابنها ، وأن تكون له أبا لأنه ابن حبيبها الغائب ، وأن تنشئه على الكبرياء والمجد والسيادة ، نزولاً عند إرادة الرجل الذي أحبت ، ورجاء أن يحمل هذا الوليد اسم أبيه الكبير ...

وتكامل مثلما يتكامل القمر في أوائل الشهر فلم يلبث أن صار بدرآ في كل عين ، ونما مثلما ينمو الغصن الغض في شمائل الروض ، يرتفع في الربيع ليدرك نيسان ويستمتع بجماله وزينه بورده ، فلم يلبث أن ملأ بمطره كل أنف ، وتزايد كأنه أغنية حب بدأها همساً في جوف الليل ثم استطل بها صوته حتى ملأ الفضاء ، فلم تلبث أن صارت أغنية الحب على كل لسان ، ويقوى كأنه الحب ينبثق في القلب ، فلم يلبث أن صار حباً مستقراً في كل قلب ... كذلك أصبح هذا الغلام ...

— (أما إنه ابن عمك)

— وكيف ذلك ؟

— (أنا قد ذقت في رحم أمه سميت به)

— (فما يملك أن تدعيه ؟)

— (أخشى هذا القاعد على المنبر أن يفسد

على إهابي^(١))

وذهب أبو سفيان يلقى معاوية ، وقد استيقظت في نفسه ذكريات حبه القديم ، وطفق ينظر من وراء سبعة عشر عاماً إلى تلك الفتاة التي أذاقته السعادة ، ونازحته نفسه إلى الاعتراف بأنها علنا ثم نناه أنه لم يحن الوقت بمد ، إن اسم أبي سفيان لا يحمله إلا قائد كبير ، أو وال أو أمير ، فليتربص ولينتظر ؛ ولكنه شيخ كبير هو هامة اليوم أو غد فمن هو الذي يحمله هذا السر الذي يضيق به صدره ؟ ليس له إلا صدر معاوية ، وذهب يلقى معاوية (كسرى العرب) ...

إسمع يا معاوية ... أتعرف الفاكه بن المغيرة ؟ لقد كان هذا الرجل زوج أمك ... أمك هند بنت عتبة بن ربيعة التي جمع الله كبر النفس ، وكرم الوالد ، فلم يقو على حفظ هذه الأمانة ، واختلفا ... ونحما كما إلى بعض كهان اليمن ... وجزعت أمك وخافت ، فقال لها عتبة :

— (أني أرى ما حل بك من تنكر الحال ، وما ذاك إلا لمكروه عندك)

— قالت : لا والله يا أبتاه ، ما ذاك لمكروه ولكنني أعرف أنكم تأتون بشراً يخطيء ويصيب

(١) جل من النارج

جندباً ، وارتفع هذا الرجل الذي لا يملك نسباً في هاشم ولا أمية — وليس له جدود من مخزوم ، ارتفع عمر حتى صار أمير المؤمنين ووارث كسرى وقبصر .

تبدلت الدنيا كلها ، فاذا الدعوة التي كانت تكافح لتغلب مكة ، قد استخدمت مكة وأهلها والجزيرة كلها ، في حرب الأعداء الذين سرقوا حرية الشعوب وعيشوا بتراث الانسانية ، وإذا القرية التي كانت منقطعة وراء الرمال قد صارت منذ هبطها محمد قسبة الأرض ووارثة المدائن سلطانها ، وشريكة القسطنطينية في بلادها . وإذا هذا المسجد الصغير البني من الحجارة والطين وسقف النخل ، يغلب الايوان العظيم بشرقائه ودعائه ، وقصر الشالسيه بخارفيه ونقوشه وقبابه وأبراجه ، ويصير ندوة الدنيا ، ومدرسة العالم ...

ففي ذات مساء دعى الناس إلى الاجتماع في هذا المسجد ، وكان المسجد دار السياسة كما كان دار العلم والمباداة — فتوافدوا عليه من كل صوب ، فلما اجتمعوا قام أمير المؤمنين فبشر الناس بفتح جديد وقدم إليهم شاباً لم يروه من قبل يدعى زياداً ليصف لهم هذا الفتح الذي جاء بخبره ، واستشرف الناس ونظروا إليه ، فلما أبصره أبو سفيان وكان في أصل المنبر إلى جانب علي خفق قلبه واضطرب ... إنه ابنه زياد — ابن الحب — وحبس أنفاسه ليصني إليه ، وقد خاف عليه الفضيحة ، فاذا الفتى الجليل الوسيم يخطب خطبة يملك بها الأبواب ، ويستهوى القلوب فلا يتمالك نفسه أبو سفيان أن يقول لعل :

— (أيحبك ما سمعت من هذا الفتى ؟)

— (نعم)

الذي يستصرخك من أعماق قبره ، يرن في أعماق قلبك ، لترفع ابنه الذي انبثق من قلبه وجهه وتخلع عليه اسمه ، وتمنحه حقه من إرث أبيك وإرث أمرك المأجد ...

أتعرف من هو ذلك الأخ ؟ أتعرف زياد بن عبيد الذي خطب على منبر المدينة بين يدي عمر ، غبراً بالفتح ؟ ذلك هو ابن أبيك ، ذلك هو (ابن الحب) فاجزني هل تحفظ وصيتي ؟

— نعم يا أبي نعم

— إذن تقر عيني وهي تحت التراب ...

وذهب أبو سفيان يذكر ليلى الحب !

على النظاري

ولا آمنه أن يسمى ميسماً يكون على سببه)
— (قال : اني سوف أختبره لك ^(١))

وخباله خبيثة فمرها ، ثم قدموا إليه أمك في نسوة ، فجعل يدنو من إحداهن فيضرب بيده على كتفها ، ويقول أنهضى ، حتى دنا من أمك ، فقال لها ، أنهضى غير متهم ولا جانية ، (وستلدين ملكا يقال له معاوية ^(١))

فنهض إليها الفأكه فأخذ بيدها ، (فنترت يده وقالت إليك عني ، فوالله لا حرصن على أن يكون ذلك الملك من غيرك ^(١)) ، فكانت امرأتى ... وكنت ابني ...

فاذا صحت بشاردة الكاهن ، فاعلم أن لك شريكاً في ذلك الملك ...

(١) جل من التاريخ

في ذلك اليوم تسمع صوت أبي سفيان أبيك

الصيف خفيف هذا العام

لأن

شركة مصر للغزل والنسيج

تقدم لكم المنسوجات القطنية

معتدلة في أثمانها — جميلة في ألوانها —

فبادروا بأخذ طلباتكم

الملك والدرويش

بقلم وفريد ستابلشير
للاستاذ محمد لطفي جمعة

وكالبدر يغنيها تودد وجهها
إلى كل من لاقى وإن لم تودد
هذا البشر والبشاشة
والابتهاج التي هي أهم عناصر
الحسن والجمال في المرأة لا تجتمع
إلا مع الأدب والتواضع والركة ،
ولا تتوافر إلا لمن ينعمن بعيشة
هنية وحياة رضية

وكان الملك فضل الله صالحاً
ورعاً ، نقيماً مؤمناً ، يقرب من
بتوسم فيهم الاخلاص ويشق بمن
يظهرون التقوى ، ويلين لهم
ويصدق عليهم تزلفاً إلى الله وقربى .
فقدم على بلاطه يوماً درويش
من المتصوفين حديث السن ،
جميل الصورة ذو فطنة وذكاء
وأدب وظرف ، فأقام أياماً بين
الحاشية والبطانة ، فاستطاع أن
يجذب إليه القلوب ويفتح الأبواب
برقة شمائله وحلاوة طبعه ، وظرف
خصاله ، وعذوبة حديثه . وكان
الفتى المتصوف جهم التواضع ،
كثير الاطراق ، ذا قناعة وعفة ،
غزير المعرفة ، فنعى خبره إلى
الملك وبالحق الأمين الذي وصفه في
حسن تقديمه في غيبته
فناقت نفس الملك إلى رؤيته
وسماع حديثه والسرور بارتشاف
سلافة مخادته ، فأوفد أمينه

تعريف بالقصة

ويفريد ستابلشير كاتب انجليزي
مقل ، أحب الأسفار في الشرق وكان
ذلك عقيب قراءته قصة « حاجي بابا
الأصفهاني » التي كانت لها شهرة
ذاتمة . فراح في إيران وحذب إليها
شعر الخيام ، وأدب الخيام وحافظ
والفردوسي ، وقد دون أسفاره في
مجلدين وكتب بضع قصص قصيرة
منها قصة الملك والدرويش التي جمعها
على نمط البوادييات الحديثة ، وإنما
المعركة بالقول بين الأرواح . لا بين
الأجساد . ووصف الحيلة الشرقية
على هذا الأسلوب البارع نادر في
الأدب الأوروبي . قال محرر « بلاكوود
مجازين » الذي نقل عنه هذه القصة
الرائعة « إنها خارجة من أعماق
الشرق كليلة من ألف ليلة ، غنيها
مسحة من أحلام الوديان الهادئة وأجبال
الشامخة ، وفيها ألوان من حيلة الملوك
الدهاة وبعض الدراويش الخادعين
الذين يتجرون بالأرواح ويسرقون
الأجساد وينصبون شبكاتهم لأحيائهم
قبل أعدائهم ، ويتصيدون نفوس
من أحسنوا إليهم ، وهم يخفون تحت
مرفعاتهم نفوساً أسود من غابة
الجب وأعمق من الآبار النامية »
ولذا أثرنا تعريبها لقراء الرواية عنهم
يوجدون فيها من النعة ما ذكره تقدمنا
الأرب .

كان في بعض أقطار الفرس
— آذربيجان — ملك اسمه
فضل الله ، وكان عادلاً رحباً ،
رؤوفاً برعيته ، كريماً على فقرائهم ،
ساهراً على سعادتهم ، شاهراً
سيوف جنده للذود عن حياضهم .
يجوس خلال ديارهم لينصف
الظلم للظالم ، قائماً بواجب الحكم
خير قيام ، ناصباً ميزان العدل
والاحسان . ومن حسن سيرته
وسماحة نفسه أنه كان يعيش على
أتم وفاق ووثام مع زوجته الحسنة
أنوشروان . وكانت الملكة
أنوشروان نموذجاً للوجه
الصالح المستبشر الطلق المتهلل ،
الناطق بما يجيش به الروح من
مشاعر الفرح والطرب وعواطف
الركة والظرف والدمامة ، فأجال
في صفحات ذلك الوجه الفارسي
البديع ماء البشر والبشاشة ،
وكساء رونق الأنس والابتهاج ،
ونضرة النعيم والأمن والطمانينة

والذى ذكر محاسنه وفضائله فدعاه إلى مجلس العرش فتلفظ الملك فى استقباله ، وأقبل عليه حتى أزال وحشته ، فوجد ما شاء علماً وأدباً ، ثم شجمه فأصاب ما لم ينتظر ، دهاء وأدباً ، وسمة حيلة ، وجمال وسيلة ، وبمدهور ، إلى تجربة وحنكة وغزارة حكمة . وألنى حقيقة الرجل فوق الذى ذاع ، وأبصر فى صورته وعقله وبصيرته وبصره بالأمور أكثر مما قصرت فى نقله الأفواه للأسماع . ففرح الملك بهذا التصوف الناشئ أعظم الفرح ، وكأنه ظفر بنافذة الأمانى ، ونادرة الدهر ، ورابع المستحيالات . فتمسك به وأدناه ونسى بهذا الضيف الجديد كل الندامى والسُّمَّار ، واكتفى به عن جميع الوفود والزائرين . وأراد أن يختص به نفسه وأن يستبقه فى بلاطه ، ليستمتع به ما بقى من أيام عمره التى تخيلها صحراء مجربة بدون استمرار مودته ، فعرض على الدرويش السعيد أسمى ما لديه من المناصب والرتب ، وبذل أقصى ما يملك بذله من المال والنسب ، وحسن له أعلى مناصب الدولة ، حتى رئاسة الوزارة وجلال الإمارة ، لم ييخل بهما عليه ، وهى تلك الوظائف التى رأى سادة البلاد ومشيوخها وصفوة خيارها وزعمائها يتكالبون عليها ، ويتهاقنون على لهايتهافت الفراش على النار ، مهما بلغت بهم السن وقطعوا من أشواط الحياة ونالوا من مفاخر المجد فى السلم والحرب ، فما زالت بهم حكمة تدعوم إلى معاودتها ، ولكن الدرويش اللبيب تنحى شاكرآ ، وأبى معتدراً قائلاً :

والذى ذكر محاسنه وفضائله فدعاه إلى مجلس العرش فتلفظ الملك فى استقباله ، وأقبل عليه حتى أزال وحشته ، فوجد ما شاء علماً وأدباً ، ثم شجمه فأصاب ما لم ينتظر ، دهاء وأدباً ، وسمة حيلة ، وجمال وسيلة ، وبمدهور ، إلى تجربة وحنكة وغزارة حكمة . وألنى حقيقة الرجل فوق الذى ذاع ، وأبصر فى صورته وعقله وبصيرته وبصره بالأمور أكثر مما قصرت فى نقله الأفواه للأسماع . ففرح الملك بهذا التصوف الناشئ أعظم الفرح ، وكأنه ظفر بنافذة الأمانى ، ونادرة الدهر ، ورابع المستحيالات . فتمسك به وأدناه ونسى بهذا الضيف الجديد كل الندامى والسُّمَّار ، واكتفى به عن جميع الوفود والزائرين . وأراد أن يختص به نفسه وأن يستبقه فى بلاطه ، ليستمتع به ما بقى من أيام عمره التى تخيلها صحراء مجربة بدون استمرار مودته ، فعرض على الدرويش السعيد أسمى ما لديه من المناصب والرتب ، وبذل أقصى ما يملك بذله من المال والنسب ، وحسن له أعلى مناصب الدولة ، حتى رئاسة الوزارة وجلال الإمارة ، لم ييخل بهما عليه ، وهى تلك الوظائف التى رأى سادة البلاد ومشيوخها وصفوة خيارها وزعمائها يتكالبون عليها ، ويتهاقنون على لهايتهافت الفراش على النار ، مهما بلغت بهم السن وقطعوا من أشواط الحياة ونالوا من مفاخر المجد فى السلم والحرب ، فما زالت بهم حكمة تدعوم إلى معاودتها ، ولكن الدرويش اللبيب تنحى شاكرآ ، وأبى معتدراً قائلاً :

— مولاي ! لست وربى سبحانه أرفض بطراً ولا أتردد مطلقاً ، ولا أنعف تصنعاً . ولا أحرم نفسى من جميل عطفك ترفعاً . أستغفر الله

ولما كان الدرويش يتقن ركوب الخيل ويحسن الكر والفر ، ويحمي الرماية ، مما لا يتوافر إلا لأبناء الملوك وخاصة الخاصة ، فكان يدعوهم أحياناً إلى صيد الطيأ على صهوة الجياد ، فيرى من ضروب الفروسية عجيماً . وفى ذات يوم خرجا يلهوان فى بعض الحراج ، وقد انقطعا عن الحاشية والأتباع وأرسل الدرويش من الملك ميلاً إلى سماع حديثه فأنشأ يقص عليه بعض نوادر أسفاره ومخاطر أيامه السالفة ، ومناصرات ماضيه ، فساق فى عرض أخباره أنه كان فى جزيرة « ديسكا » من جزر الهند الشرقية ، فصحب رجلاً من شيوخ البراهمة ، وإماماً من أئمتهم ، وقطباً من خيرة أقطابهم ، هو مركز دائرة الوصول عندهم ، ومنبع نهر الحقيقة فى عرفهم ، وجمع أسرار الطبيعة لديهم ، سادن الهيكل ، وأمين خزائن الحكمة . وقد

شاء الله الواحد القهار والفعال لما يريد أن تكون
وفاة هذا البرهمن بين ذراعي الدرويش

فلما جاءت سكرات الموت ، وبلغت روحه
التراقي ، ولم يبق بينه وبين « الانفصال عن جسده »
ونوبه الأرضي والانسلاخ عن جلده والوثب عن
كثب إلى العالم الثاني ، سوى بضع ثوانٍ ، أو قُلْ
بعض أنفاس تتردد ، أو ما إلى أن أُنصفي إليه ، فطاطات
رأسي حتى لامست فيه فباح لي بسر من أخطر
أسراره ، وأخذ على عهد إليه وميثاقه ألا أبوح
به ما بقيت في نابضة

فوقف الملك مذهولاً من إفراغ الخبر في قالب
التشويق حتى طارت نفسه شماعاً في سبيل الوقوف
على حقيقته . فقال للدرويش على سبيل التخمين
والحدس « لعله صناعة الذهب من المعادن الخسيسة ،
أو حجر الفلاسفة »

قال الدرويش : كلا ! بل هو أعجب من ذلك
وأغرب

قال الملك : لعله نبع الحياة الذي إذا شرب منه
الشيخ جرعة عاد إليه شبابه ورجع إلى صباه وأقبل
على اللذات ينشف كؤوسها كما كان فتياً

قال الدرويش : كلا ! يا مولاي بل هو أعجب
من ذلك وأغرب

قال الملك : لعله بساط سليمان أو فرس نهمان
الذي ينقلك من مكان إلى مكان في طرفة عين

قال الدرويش : كلا ! بل هو أعجب من ذلك
وأغرب :

قال الملك : لعله تستطيع رؤية من تحب
وتخاطبه وتعاتبه وأنت على بُعد شاسع ومسافة
تطيرها الجياد في أيام

قال الدرويش : كلا ! بل هو أعجب من ذلك
وأغرب

فضحك الملك وقال : إلى هنا وكلت غزالة
ذهني فلا تجرئ وراء ذلك ، وهبط طير العقل
فلا يحلق فوق ما ظننت

فقال الدرويش ، وهو عابس لا يفارقه الوقار
ولا يجاري الملك في سروره : إنما السر هو إحياء
جنة ميتة بنقل روعي إليها

فهت الملك وقال : التقمص أو التناسخ
قال الدرويش : فليسمه مولاي بما شاء ، من

من الأسماء . إنما هو البعث والاستبدال وقهر الموت
فقال الملك : ان الذي يؤمن به بكفر بدينه ، فقد
كان عقيدة المجوس وأتباع زاردشت . إن البعث
لا يكون إلا مرة واحدة ، يوم القيامة . ومعجزة
إحياء الموتى لم يهبها الله إلا نبياً واحداً

فقال الدرويش : لا تدخل للكفر والايمان ،
فإنها صناعة وذريعة ، لا كرامة ولا معجزة .

فقال الملك : إن في كتبنا خبر حسن بن صباح
الذي رأى حماراً يحمل حجارة ، ويتسكك في الطريق
وسائقه يسكره والحمار يبكي ، فدنا منه وتحدث إليه
ثم قال : إنه صاحب فلان ، رفيق صباي وزميلي في
المدرسة ، قد تقمصت روحه جلد حماره . ولكننا
نقرأ كما نقرأ شعر صاحبه الخيام على أنه حديث
خرافة ونسلية النساء ومزاج الأغراب

قال الدرويش : والملك أسر حديث قلبه الله
أماناً ترعى العشب وتمزق الكلاب بأسنانها وأنيابها
وتطرد الدباب بذنبها ، وكان ذلك تهذيباً له وإذلالاً
لنفسه بعد طغيانه وظلمه ، وقد كان ملك آشور ، ففزا
ديار الملك ليللي ودمر بلاده تدميراً وتركها طعمعة

للنار وحبس عدوه المظلوم في قفص من حديد .

فقال الملك : لقد حسبتهك تمزح ولكن إيراد المثال يضع حداً للقليل والقال . قل لى بربك أيها الدرويش أين تذهب الأرواح عندما تغادر الأشباح ؟ أذهب الملك العادل والحكيم الخبير والشاعر الأدب والجمال الناصر إلى حيث لا عودة ، إلا يوم النشور ، حيث يردون دار النعيم أو دار الشقاء ؟ وعلام العلم والأدب والتفكير والأحلام والرجاء إذا لم تطل حياة الانسان أكثر مما ترى في هذا الوجود ؟ فقال الدرويش : حذار يا مولاي فقد كنت تُحذِرُني من مغبة النظر في هذه الحكمة الإلهية ، وما أنت ذا تندب حظ البشر ، لأنهم يعيشون على سطح الأرض مرة واحدة ، وتستكثر على الموت أن يطوى صفحاتهم قبل أن يستمتوا ، أو توافهم آجالهم في الوقت الذي آن أن يجنوا ثمار جهودهم ، وينتفع الناس بخيرهم ... ولعلك أيضاً تجدد الزمان الذي يذهب بين الموت والبعث أطول مما يستحقه الفضلاء من السجن في البرزخ والأعراف وما إليها فقال الملك : ما أسرع تنقل الفكر الإنساني ! فأين نحن من صناعة البرهي التي اتفك إياها . هيا بنا إلى الصيد يادرويش العزيز ، فإن فيه انصرافاً عن مزالي الزندقة ونجاة من الوقوع في مهاوى الهرطقة .

وفي تلك اللحظة منج لها ظبي ، فرماه الملك فأصماه ، ثم أقبل على الدرويش فقال :

— دونك جثة هذا الظبي الغرير ، فأرني آيتك وأثبت لي براعتك وأعدده إلى الحياة أو أعد الحياة إليه ، بعد أن أوردته بسهمي مورد الختوف .

فلم يك إلا كلج البصر حتى رأي الدرويش قد

خرج من جسده ، فغادره جثة هامدة ملقاة على الصعيد ، وانسل في جثة الظبي فتقمصها ولبسها وأحيها بروحه ، فأهضها وإذا الظبي حي يتنزي صراحاً ، ويتوثب طهاحاً ، حتى أقبل على الملك يتمسح به ويحوم حوله ، ليثبت له أنه درويشه ونديمه وأنيسه ، وأنه لو كان ظبياً غير الذي أصماه الملك ، لأسلم صراجه للريح ، وتعلق بأذيال الغرار

ثم انبرى الظبي البعوث للمشب والكلاب رعاها ما شاء . فاعرورقت عين الملك الطاهر الطوية بالدموع على « غزاله » الذي كان منذ برهة نديمه وأليفه وعشيرته . ولكن الظبي ما لبث أن خر إلى الأرض جثة هامدة ، وفي نفس تلك اللحظة تحرك جسد الدرويش بعد هموده ، وبدأت عليه دلائل الحياة ، ثم نهض كأصح ما كان وأنشط ، فأقبل عليه الملك يقبله ويهنئه وقد دهش من تلك المعجزة الخارقة وأقسم عليه بكل عزيز ورفيع ومقدس ، إلا ما لقنه هذا السر العظيم . فاعتذر الدرويش وتأبى وادعى أن شيخه البرهي لم يأذن له في تلقينه أو البوح به دون سابق رياضة ومراعاة ، فإن مثل هذا السر ليس بالشىء الهين ... وما زال كذلك حتى بدأ مولاه يتذلل إليه ويهون لديه ، فوقف عند هذا الحد من التأبى والتقية ، وماعثم أن أذعن ثم لقنه سر الآية مضمناً لفظتين بالسريانية . وأراد الملك أن يجرب المعجزة اتوه وساعته . وكانت جثة الظبي لا تزال طريحة على الترى ، فعمد الملك بحوها وتلا اللفظتين ، فما هو إلا كلج البرق حتى انتقل روحه إلى جثة الظبي وخر جسده إلى الأرض ميتاً

في تلك اللحظة أقبل الدرويش الخائن على جثة الملك وهي خلاء من الروح ونقل إليها روحه بسرعة

وعاد الدرويش في شخص الملك إلى قاعدة ملكه وعاصمته ، يترشح طرباً ويختال تهاً ، فتناول الصولجان وتبوأ عرش الدولة . ولكي يأمن ضياع العرش المفتصب والتاج المستلب ، أصدر أمره إلى العريسة بإعدام كل ما تحويه الآجام من وحوش الطياء حتى يهلك فيما يهلك هذا الطيبي الذي تقمصت فيه روح الملك الحقيقي . ولكن الأقدار أعانت الملك فأقلت من سهام الرماة والمتقممين بتقمصه في جنة بلبل ميت كان قد بصر بها ملقاة على الأرض عند جزع شجرة تين مثمرة

وفي هذا التقمص الجديد طار الملك سالماً إلى بستان قصره الذي كان الدرويش يعمره مع الملكة وكانت تشمر نحو الدرويش المتقمص في جسد زوجها بنفور أوحته إليها الفطرة الشفافة والحس المرهف والنفس الشرفة بالنور الروحاني على بعض الخفايا فلم تبذل فراشها لروح غير روح زوجها . ولم تقبل على الدرويش الخائن يوماً .

هنالك وقع الملك البلبل على فتن أيبكة بجوار نافذة الملكة وشرع بفرد ويرتل حتى هز برنين صوته أركان المكان ، وأرقص بشجا حنينه النصوص والأفنان ، وحتى فتن الملكة واستهوها ، فدنّت إلى النافذة طرباً بالحانه واشتياقاً إلى نغمه . فأحزنه من الملكة أن رآها قد سرت بحنينه ، وابتهجت لأنينه ، وقد كان مراده أن يهيج أحزانها وأشجانها ويستثير رحنها ورافتها . وما كان أعظم ضيقه وألمه وهو عاجز أعظم المعجز عن الانتقام من عدوه والاستمتاع بزوجه والمودة إلى ملكه . ويزيده كدّاً أنه غير قادر على شرح حقيقة حاله لأقرب الناس إليه ، وهيهات أن يصدق أحد حتى إن هو

البرق الخاطف وتناول قوس الملك وكناته وسدد سهمه إلى شخص الطيبي المشتعل على روح الملك يريد إصابته وإعدامه ، حتى إذا زهقت روح الملك من جثة الطيبي بهذه الكيفية ثم لم تجد جسماً تلجئ إليه ، ذهبت بطبيعة الحال إلى عالم الأرواح أو ذلك البرزخ الذي كان الملك يمجب لاختزان النفوس الفاضلة في أكنافه . وهذا هو الموت الزؤام بمينه . وبذلك يكون الملك قد مات موتاً لامراء فيه ولحق بالأعراف أو عليين . وقد أصبح الدرويش هو الملك ولا يفتن أحد إلى حقيقة أنه إذ كان يتقمص جسد الملك وصورته فيعود إلى البلاط ويحمل الأكرّة والصولجان ويابس التاج ويمجر ذبول القباء القرمزى ، ويقبض على أعنة الحكم ، ويتصرف في الدولة كما يشاء ، له الأمر والنهي والعزة والجلال . وقد أدرك الملك الحبيس في جثة الطيبي هذه الحيلة البعيدة الغور ، وكشف له عن سر الدرويش الشرير وما كان يضمّر له من سوء جزاء له على إحسانه إليه وبره به وتفضيله على رجال بلاطه وأهل حاشيته ، فحنق الملك الطيبي وحرّق الأثرم ، ولكنه لم يكن يملك الانتقام من عدوه وهو في موقف الغريسة من المفترس ، والصيد من الصائد المسدد سهمه إلى جسده لهريق دمه . ولكنه بدلاً من أن يذيب كبده غيظاً ومجزأ راغ من السهم ، فأقلت من شرك الردي وهام على وجهه في الآفاق ... وكل الصيد في جوف الفرا . فاكتأب الدرويش هنيهة ثم أخذ في مطاردة مولاة والبحث عنه في الآكام حتى أعجزه التنقيب فعاد من حيث أتى راجعاً أن يلقى الطيبي حتفه على يد صائد آخر ، فإن الطياء السمينة قصيرة الأعمار

ملك زمام النطق البشرى أو وهبته الطبيعة فصاحة
سحبان وحكمة قس . فرضى من الدنيا بتصيبه
الجديد وبث ردحا من الزمن ينعش نفس زوجته
بالألحان فى كل صباح ، حتى استدعت صاحب
طيرها وأمرته أن يبذل أقصى ما لديه من الخلق
لاقتناص ذلك البلبل الصداح . غير أن (البلبل
الملك) لم يحوج صاحب الطير إلى بذل أدنى مجهود
لاقتناصه ، بل وقع فى يديه طائفا مختاراً منهزماً
فرصة الأسر للدنو من زوجته

فلما عرض عليها ومعها حاشيتها من الوصائف
اندهش الجميع لما رأيته ينفر منها إلا الملك فإنه
سقط عليها يتمسح بها ويتشبث بأردائها ثم اختبأ
فى جيبها ففرحت بما أبداه البلبل من التحجب إليها
والتحجب عليها دون سواها ، وأمرت به أن يجعل
فى قفص من الذهب المرصع بالجواهر فى غرفتها
بشرط أن يبقى مفتوحاً حتى لا يشعر بضيق الأسر
ولذلك جعل البلبل بفضل منزلته الجديدة وزلفاه ،
يبدى للملك من أساليب الملاطفة والمداعبة ما تسمح
به طبيعته وخلفته . وجعلت الملكة تقضى
الساعات العديدة الطوال فى مداعبة بلبلها وملاعبته ؛
ووجد البلبل الملك سلوة وعزاء فى حاله هذه مع
الملكة ... لولا ما كان يكدره أحياناً من دخول
الدرويش عليها فى ساعات اللغو واللعب ومغازلته
الملك وهو تبدى نفورها منه وتعلق الأبواب دونه
وكان غاصب العرش (الدرويش) كثيراً ما يحاول
استجلاب مودة البلبل ، ولكن بلا جدوى ، إذ
كان كلما ازداد تقرباً إلى الطائر ازداد الطائر منه بعداً
ونفرة ، بل ربما أوسمه نكراً بمخلبه ونقرأ بعتقاره
مما كان فيه ملهامة للملكة وممجيبة

وكانت الملكة أنوشروان كلفة أيضاً بكب
مستأنس بيت معها فى حجرتها ، وكان صديقها
الابكم وتابعها الأمين ، ومازال لها ولياً وقيماً ولذكراً
زوجها حافظاً حتى كان يشار كها النفور من الدرويش
التخفى فى جسد الملك . وكان الكلب بحكم الاختلاط
قد ألف رائحة سيده وميزها من غيرها ثم تعود رائحة
الدرويش مذ كان يفسى القصر على صورته القديمة .
فلما وجد فيه رائحة لا تشبه تلك التي تعود شيها
راح يطمس وينسج ولا تهدأ أثره حتى يفارق
الدرويش غرفة الملكة . والكلب أقوى شيئاً من
الانسان ، ولهذا كان أعرف باختلاف روائح الناس
من الناس أنفسهم . فاتفق أن مات هذا الكلب
ذات ليلة وأهل القصر كلهم رقدوا إلا البلبل الذى
أبصر موت الكلب ، تأقت نفسه إلى التفتعص
فى جثته ثم ما لبث أن صنع ذلك فترك جثة البلبل
وأحيا جثة الكلب التي حل فيها

فلا تسأل عما أصاب الملكة من برحاء الوجد
وحرقة الكمد عند ما استيقظت صباحاً فرأت حبيبها
البلبل ميتاً وكان سلوتها وعزائها . فانفرط بعوتها
وانقطاع صوته عقد هنائها ونفدت البقية الباقية
من صبرها

فاستدعى الملك الكاذب (الدرويش) وصانقها
وأقبل معهن يحاول إقناعها بيطلان حزنها ، لأمر
تافه كهلاك طير حقير . ولكنه عبثاً حاول وحاولن .
وجعلت الملكة تبكى وتندب بما أذاب من كبد
الدرويش رحمة بها ورناء حتى وعدها أن يرد الروح
إلى بلبلها . فإنه مازال يطمع فى رضاها ، وتحديثه
نفسه الخبيثة بدم اليأس من خداعها ، حتى ينال
منها مأربه وهو فى نظر العالم كله زوجها إلا فى

الله المحي الميت المبدى المبدى . وبلغ العجب من الملكة أقصى مبالغته

وكان الملك الحقيقي يرى ذلك كله بعيني الكاب الذى تقمص جلالته فى بدنه ، فاكاديبصر الدرويش قد خرج من جسمه (وهو الجسم الذى كان الدرويش يحتال فيه مذ تقمصه فى الغابة يوم الصيد) حتى خرج هو من جثة الكاب كالسهم الماروق ، فاسترد جسمه قائلاً : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » ثم هجم على البلب الكاذب (المتضمن روح الدرويش) فلوى عنقه وقصف رقبته

عند ذلك عاودت الملكة بكاءها ونحيبها ، ولكن زوجها الملك مالبث أن أفهمها حقيقة الأمر من أوله إلى آخره مؤيداً قوله بحجتين دامغتين الأولى جسم الدرويش الذى مازال متروكاً فى الغابة ، والأمر الذى أصدره الدرويش بإعدام جميع ما احتوته البلاد من ظيلاء الوحش . وهكذا تنعم الملك بزوجته بقية العمر فى رغد وصفاء . محمد لطفي جمعة

نظرة لملء بحقيقة أمره ، وفي دخيلة نفسها اشموورها بالنفور منه .

وقال لها : ولكن علينا أن نتفاهم أولاً قبل أن أخطو هذه الخطوة الخطيرة ، برد الروح إلى بلبك الذى تؤثربنه على .

إن ما أخذته عليك فى عهدنا الأخير من طبيعة الصخب والقسوة وميلك إلى غصمى والتبرم بى وإرسال الزفير والشهيق ، وسكب الدموع ، لما يحزن النفس ويديمها ، وما يدعونى إلى اتهامى بإك بسوء الخلق وحب الشر ، ولم يكن هذا عهدى بك منذ خرجت إلى الصيد وفقدت ندى ذلك الدرويش المسكين الذى جندلته بسهم خاطئ أصاب أحشاءه فزرقها .

فقلت له : إن بعض هذه الطباع التى تكاد تسخطك وتحملك على اتهامى بسوء الخلق وحب الشر إنما هى ثمار أنتجتها نفس هذه التربة التى أنتجت الحلو الطيب من الحامض ومحامد الصفات كالرحمة والحب والرفقة ، فإذا رأيت الضدين من الخلق الفاضل حيناً ، ومحمود التضحية وخالص الوفاء أحياناً ، فلا تحسبن هذا التناقض مظهرآ من مظاهر العناد الكاذب والاستبداد الباطل ومحض الدلال والتجنى . وعليك أولاً أن ترد روح بلبى إليه .

فوعدها بذلك وعد الوائق ، فخبست طوقان دمعها وتساءلت مندهشة : أنى له ذلك ؟ ولم تعده من قبل يرد الأرواح ويميد الموتى إلى عالم الأحياء حتى ولو كانوا طيورآ ، وإن ملك هذه الموهبة الخارقة ، فلم لم يرد روح درويشه العزيز الذى كان يؤثره على كل من عداه من الزمان والبطانة ؟

ولكن الملك الكاذب لم يجبهها ، غير أنه انطرح على مقعد ثم أرسل روحه فى جثة الطائر فعماش باذن



حياته الخافت فقد استدعاء يوماً
وقال له :

— بُني العزيز . إن لربة
الصحة على لندراً : رستا من
الشاء الكناز فاذهب بني بها إلى
معبدها وقدمها قرباناً على مذبحها
وكان المعبد يبعد بمسيرة
يومين متتابعين ليس غير . بيد
أن أليكسيس وقف من حبيبته

موقف النازح إلى سفر طويل دونه المحيطات
والبحور . وبالدمع السخين يسح من عينيه ، والحزن
العميق يرسم على شفثيه ، بدأ سفرته والشاء أمامه
تذبذب ديبها المضطرب البطيء . سار يتنهد تنهد
المحزون ويذر الزفرات الحار . فمضت أشجار
الصفصاف على طول الغدير تشاركه التأوه والأنين ،
ومر بالناظر التي حوله من سندس جميل منفر
بأفواف الزهور الفواحة المطار كأنه حالم لا يأخذه
سحرها ولا بناله غيرها . وكيف ينتبه إلى تلك
الجنان وهو هكذا حزين النفس جريح القلب مكلوم
الفؤاد ؟ وهل لمن كتب عليه النوى عن حبيبته والبعد
عن أليفه أن يفكر في غير هواه ، وأن يحس سوي
الحنين إلى ليلاه ؟ وهل يرى العاشق المدنف الصب
التيمن في كل ما يرى من جمال الطبيعة وسحر المناظر
إلا وجه حبيبته النأى يزيد في ألهايب الحب ويسجر
نيران الغرام ... كان يراها إبأن سيره وحيداً مع
غنمه ... كان يراها في جوسقها ناعسة وسنانة ،
أو مضطجعة بقظانة في ظل سخرة مشرفة على الغدير
الورقراق . بل كان يسمعها تناديه وتردد اسمه . وبعث
التفكير والخيال في قلبه نار الجوى ، فتهد . وظل

من أحسن القصص

غيرة

للكاتب اليوناني سولومون چسنار
بقل محمد عبد الفتاح محمد

لا ريب أن الغيرة هي أخبث العواطف جماء
بين الناس ، وأسرعها تشبثاً بالصدور وأقواها على
التعلق بالأفئدة ؛ بل هي كالأرقم بنفت السم يوخز
من الناب بسيط ، وكالعقرب تسرح الهلاك بضربة
من ذنبها الواهي الضميف . ويرى القارى في هذه
القصة كيف تستبد هذه الماطفة الخبيثة بالرء فتقيمه
وتقمده ، وتقم حياته بالبوؤس وتترع قلبه باليأس ،
وتمرض على صفحة ذهنه المضطرب صوراً متتابعة
من الوسواس والأوهام

كان « أليكسيس » فتى ذا صرّة ، غريبط
الشباب ، بادی الفتوة ، أسمر الإهاب ، يزخر بالرجولة
الناضجة الكاملة ؛ وكانت « دافن » كاعباً فتانة ،
ساحرة ريانة ، مياسة كالغصن ، مشرقة كالبدر ،
طاعمة كالزنبقة ، وقد تماهدا على الوفاء في الحب ،
وأقما على الاخلاص في الهوى . لذلك أترعت
« فينوس » مع سائر ربّات الحب كأفس جهما
بالسعادة والهناء ، فراحا ينعمان بحياة رغيدة وعيش
مُخَفَّرج في ظل غرامهما العذرى الفياض

وإذ تماثل أبو أليكسيس للشفاء من مرض
عضال كاد بعصر عوده الواهن ، وبطنى سراج

وسيم جذاب ، له صوت مُرِنٌ خلّاب ، إذا ما تكلم
سحر ، وإذا ما أنشد وتغنى بهر ، وإذا ما غزف
على قيثارته مَسَسٌ أوتار القلوب ، وهز كوا من
الشجون ، وبعت إلى الأفئدة الحنين إلى العشق
والهيام . ثم إن بيته مُلاصق لبيتها ولا يفصلها عنه
غير الجدران ... يا للوعد الجميل لقد شفّتها حباً ...
أوه ... ذريني أيتها الأوهام الباطلة . . دعيني أيتها
الأفكار الآئمة . . »

ولكن تعمقت جذور الفيرة في ذهنه وأترعت
سمومها شفاف قلبه ، ودفعت السحاب الثقيل
والغيوم الكثيفة إلى سماء حبه اللازوردية الصافية ،
وسلبته الراحة والهناء آناء الليل وأطراف النهار .
ففي أحلامه بالليل ، وفي تخيلاته وأوهامه بالنهار ، كان
يرى حبيبته تخطر كنسمات الصبح النور ، وتميس
كالنفس الغيتان ، نحو الفيردي الحرير ، تحت ظلال
الأشجار الشجراء اللقاء لتقابل دافيس الذي يروح
يفنى للقاءها بصوته السماوي الساحر فيشف أذنيها
بجلو أنغامه ، ويضطرب سمعها برخيم ألحانه ...
ورآها بمين الفيرة تبث ما تجنه له من الحب عن طريق
لحظها الفار ، وتشرح له هواها بلغة العيون السواحر ،
وصدرها الناهد الأثم يعلو ويهبط مع أنغامها اللاهثة
التي تمبر عن شدة العشق الدفين . ورآها كرة أخرى
نائمة تحت ظلال الأغصان الوارفة النشوى بينا يدب
دافيس ديب السارق في جنح الليل الفاسق فيقترب
منها ويقترب حتى يطوق بصره بدنّها الطرى الغيتان
فيتأمل جمالها الوسنان ويتعلّى من حسنّها الفتان ...
وينحى عليها ثم يأنم يدها في توق فلا تنبّه ، فيقبل
خدها في شوق فلا تغيق ، فينهال على فمها الوردى في
حرارة ووجد فلا « تسقط »

هكذا حاله وهو يسير وراء غنمه . ولم يكن لينتبه
من هذه الأفكار ويشوب إلى نفسه إلا ليل من هذه
الشاء البطيئة المكسال . وود لو كانت طيراً يطير
أو غزالاً يطوى الأرض طياً . وأخيراً بعد طويل
من التفكير والسير وصل إلى المعبد المقصود
ونحرت الفم وقدمت الأصاحي ، فماد من
حيث أتى طائراً على أجنحة حبه العظيم . وبينما
هو يجد في السير على أرض حطبية . تقحّمت
شوكه قدمه وانقرزت فيها فسبّبت له ألماً شديداً
فقد به حتى عن الجسور إلى الكوخ الجاثم
على كتب منه . والنقطة زوجان طيبا القلب وتوليا
علاجه من جرحه الدامى الأليم ببعض الأعشاب
البرية بينا دأب هو على أن يتمم بين الفينة والفينة ؛
« يا لبؤسى وشقائي ! » . وأخذ يستبطن الساعات
ويتعجل الدقائق ، ويناشد الشمس أن تحت السير
نحو المنيب ، حتى إذا ما دلت راح بضرع إلى الليل
أن يتجاف وينجل . ولم يكن ذلك وحده هو
الذي أقض مضجعه وأقلق باله ، بل راحت بعض
الآلهة المتاة القساء ينثرون في قلبه بذور الفيرة .
فجاشت في قلبه الوسواس وتقلب على فراش حشوه
الفكر والهم . وطفقت الأوهام تُوغل في رأسه
القلق الحيران ، وراح يتساول نفسه في تمنة أشبه
بالهذيان :

« إيه أيتها الآلهة : ما هذه الأفكار السوداء ؟
أتقدر بي دافن ؟ محض وهم وافتراء ... ولكن
المرأة هي المرأة ... ودافن جميله حُسن من
ذا الذي يراها ولا يشتهيها ؟ من ذا الذي لا يسببه
دَلِّها وتجنّبها ؟ . ألم يدأب جارها « دافيس »
على التقرب منها والتغزل فيها ؟ . وهو لا نكران

ضوء القمر الشاحب الحزين كأبداع ما يكون عاشقان
وتسمر اليكسيس في مكانه يرتعد من الرأس إلى
القدم ، وراح يفكر : « ماذا أرى ! إذن فقد صدقتني
الآلهة .. وتحققت أوهامى .. إذن لقد أعدتني الآلهة
الرحيمة المادلة للصدمة فأحاطتني بكل شئ ، علماً ..
يا لى من بائس تمس ... أين الربة التى ألهمتني تلك
الحقائق ؟ هل هى أيتها الإلهة فساعديني على الانتقام ،
على الانتقام من ناكثة اليهود .. الغادرة الكنود
هل هى فاصمتي هذين الخائنين ثم عتبي بى أنا الآخر
وتأبط الشاب ذراع الفتاة وسارا تحت ضوء
القمر متجهين نحو جنة من الآس والبنفسج حيث
يقوم تمثال فينوس .. سارا يتناقلان الحديث
ويتجاذبان الكلام بينما طفح وجهها بمغنى السعادة
والغبطة .. وقال اليكسيس فى نفسه : « آه ! إنهما
ذهبان إلى جنة الآس حيث تساقيتنا — أنا وهى —
كووس الحب مترعة .. حيث باحت لى بسر قلبها ،
وأسكرتني بحمرة حبها . هاها يدخلان إلى الحرج ..
لقد غابا عن بصرى .. لعلهما الآن فى ظل شجرة
يتناغيان ، أو على ضفة الغدير يتشاكيان .. ولكن
لا .. لقد عادا إلى الظهور ثانية . إلى الملح فستانها
الأبيض ينعكس عليه ضوء القمر من خلال الفروع
والأغصان .. لقد توقفا عن السير إذ أتيا على بقعة
سندسية يكسوها العشب الطويل والحشائش الكثة
النامية .. يا للخيانة والغدر .. كيف لعمري تسمح
ربة الحب لهذين الغادرين بتدنيس جلال الليل الساجى
وجمال القمر المتباج الزاهر .. بلى .. إجلسا يشهد
القمر خيانتكما وغدركما ، وتنصت النجوم إلى كلمات
الحب الآثم التى بها تتناجيان .. ألا لعنة الشيطان
عليكما .. ولكن ما هذا ؟ .. أبلبل بفرد وحمام

هنا يصرخ اليكسيس بأعلى صوته : « يا لى من
بائس مسكين ! ما هذه الأفكار السود التى يخلقها
خيالى ؟ لماذا أراى لا أحيد عن هذه الأفكار قيد
أنملة ، ولا أراها تفك أسارى مقدار لحظة ؟ لماذا
أشقى نفسى بهذا الوهم الباطل وتلك الصور الزائفة
التي أنهم بها طهارتها وأنال بالابقال فيها من
إخلاصها ووفائها ؟ »

وتصرمت ستة أيام طوال ولما ياتم جرحه بعمد ،
فلم يستطع الصبر أكثر مما صبر ، وعبثاً حاول الزوجان
أن يشيئا عن السفر .. فواصل رحلته بعمد أن عائق
مضيفيه وشكر لهما صنيعهما .. واصل السير على قدر
ما سمح به جرحه الحى .. وكان الليل قد وقب حينما
انتهى إلى حيث يقوم مئوى جبيته الغالية . وكان
القمر الزاهر بترجل رويداً رويداً فيلقى بضوئه
الناعس على الأرض الشجراء .. وقال نفسه وهو
يفقد السير نحو الحبيبة : « إليك عني أيتها الأفكار
القواتم . ها هى ذى حياتى تنتظر أو بى . وسأسكب
دموع الفرح الندبة للقيها ، وأضمها إلى صدرى
الظامى اللهمان » وفى ممشى حديقة بيتها رأى طيفاً
يتشى تتنهد فتتم : « إنها هى .. هى دافن بذاتها .
فهذه قامتها المهيبة ، ومشيئها البانية الرائعة ، وثوبها
الأبيض المفعهاف .. إنها هى أيتها الآلهة .. ولكن
أيان تذهب وقد غسق الليل ؟ ليس من سداد رأى
أن تخرج عذراء وحيدة إلى هذا المكان الموحش
فى ذلك الليل المظطش . ألا تكون قد خرجت للقائى ؟
بيد أنه رأى شبحاً يسير وراءها حتى لحق بها ..
شبح رجل .. ثم سمعها تضحك وهى تتناول يده
فى يدها وتأخذ منه سلة الزهور فتعلقها فى ذراعها
الأخرى ، والآن هما يسيران جنباً إلى جنب تحت

إلى ذراعى سالكا من غير سوء . وتبسميه إلى محبا
 غلصا وعاشقا وفيها كما تركنى .. آمين .. آمين ..
 وأسنى اليكسيس إلى صلاتها في زهول
 وتمجب ... هنالك فقط سدد نظرة فاحصة إلى
 الشاب الذى معها . وكان آتئذ فى وضع بدا فيه
 وجهه تحت ضوء القمر ... لقد رأى الحقيقة الآن!
 وما الشاب إلا أخو دافن ... وقد رافقها ولا ريب
 فى مجيئها إلى المعبد لعله أنه من الخطر على عذراء
 رعبب منها أن تخرج وحيدة فى ذلك الليل المدهم
 الداجى

وبرز اليكسيس من مخبأه ... ففاض الفرح على
 دافن لرؤيته ... وامتلأ فؤاده هو بالسرور ...
 والحجل أيضاً ... وتماثقا طويلاً ... ثم اتجها إلى
 الربة ثمة بصليان ويشكران

محمد عبد الفتاح محمد
 بالساحة والناجم بينها

آلام فتر

للساهر الفيلسوف جون الاملانى

الطبعة الجديدة

ترجمها : أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالية نمد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

ونعها ١٥ قرشاً

يسجع وأطيار تشدو؟ وكيف ذلك وفى تلك البقعة
 الطاهرة يجلس هذان الإنسان الفاجران! أراهما
 يتحركان .. أجل ، إنهما فى سبيلهما إلى معبد
 فينوس . سأمضى فى أثرهما فأنصت إلى حديثهما
 وأقتص حركاتهما

واتخذ سبيله وراءهما لا يلوى على شيء ، واقترب
 منهما فى حذر حتى أصبحا قاب قوسين أو أدنى
 من أعمدة المعبد الرخامية التى تشق الفضاء ... وعاد
 إلى تمتته «ماذا!! إنهما يدخلان ... أو هل تسمح
 الربة أن تبارك هذين الفاسقين» ... ورأى الفتاة
 تنزل الدرجات القليلة وفى ذراعها سلة الأزهار ...
 بينما استند الشاب على أحد الأعمدة ينظر إلى
 «فاتنته» ... واقترب اليكسيس خلسة إلى ظل
 عامود ووقف ثمة يتربص ويتجسس . رأى دافن تبلغ
 تمثال فينوس الذى يقوم هناك فى حلتها الرخامية
 الناصعة تحت ضوء القمر الشاحب ، والذى بدا كأنه
 تراجع ثمة ازدراء لتلك النظرات الحيرى التى شمت
 من عيون هذين المجرمين اللذين تقفهما معبده للتضحية
 على مذبحه ... وجئت دافن تحت قدي التمثال حيث
 وضعت ما تحمل من الأزهار النضيرة والورود
 الفواحة ، وراحت تتم بصلاة حارة بين نشيج
 بهزها ودمع بخنقها «إسنى إلى صلواتى واستجيبى
 لدعائى أيتها الربة الرحيمة العادلة ... واقبلى هذه
 الزهور التى أقدمها قرباناً على مذبحك ... وإن ندى
 الليل الذى يبللها لمترج بدموعى الفوالى ... ها قد
 تقضت ستة أيام سوياً مذ نأى عنى اليكسيس
 الحبيب ... أوه! أى فينوس الحلوة الطيبة . أسألك
 باسم هاته الأزهار التى أضفى بها على مذبحك المقدس
 أن تصونيه وترعيه وتهديه سواء السبيل ، وترديه

أن تجي بها الضرائب أو تصدر
الأحكام . وقد تساءلنا عن
بعض ما بدا لنا من الخواطر
فظهر لنا أن القوم لا يفهموننا
ولا نفهمهم ، فقد قالوا إنهم
يمرفون من علم الفلك نوعاً
يدلهم على اتجاه السفن ، وبين

المسافات بين بعض البلدان وبين بعضها الآخر ، وبين
موقع كل منها بالنسبة لغيره . مع أن علم الفلك كما
نعرفه يدل على الطالع الحسن والطالع المنحوس وبين
الساعات الموافقة للحجامة والسفر والزواج والحروب
وقد ظهر لنا أن علم الفلك عندهم سهل ، فإن
الصبيان الذين في السفينة كانوا يستعملون ما يشبه
الاسطرلاب عندنا ولكنهم لا ينصبون خيوطاً .
ثم هم يقولون في الحال نتائج بحتم بهذه الآلة .
والمعجب هو تعلمهم شيئاً من هذا العلم في مثل هذه
السن لأن الفلك عندنا وإن كان مخالفاً لما يمرفونه
عنه فهو صعب جداً لا يحيط به إلا طوال الأعمار
الذين قضوا في تعلمه عشرات السنين

وقد أمر السفير صاحبنا « محمد بك » بأن يبين
لنا موقع أصفهان على طريقهم فقال : إن النجوم
تغيرت وإنه لم يعد في وسمه مزاولة العلم الذي تعلمه
على ميرزا قاسم في أصفهان ، وقال : إنه لم يعد في
وسمه حتى ولا استقرار الطوالع

تألم السفير من ذلك ألماً شديداً لأنه كان يريد
تماطى الدواء ، فكلف شاباً من البحارة الانكليزان يبين
له بما يمرفه من علم الفلك هل تماطى الدواء في هذا
الوقت مناسب أم لا ؟ ففتح الانكليزي فمه وعينه
كالأبله وقال : إنه لا يدرك الصلة بين الدواء وبين

حاجي بابا في الحكمة

تأليف جيمز موير
بمقام الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل العاشر

علم الفلك عند الفارسيين وعند الانكليز

عندما مضى تأثير الدهشة الأولى دخلنا الغرفة
المعدة لجلوسنا فوجدناها فاخرة الرياش محلاة بالصور
وعلى كل حائط منها امرأة في إطار مذهب ، أما الأنباغ
والخدم فقد جلسوا في غرفة أخرى وعلقوا مسدساتهم
وسيوفهم على حوائطها

وعند ما حان وقت النوم اختار كل منا سريراً
يلائم ذوقه لاختلاف أنواع الأسرة كما تقدم . ولست
أريد أن أذكر ما أصاب كلا منا من الدوار والقيء
وغير ذلك من متاعب البحر

استيقظنا في الصباح فلم نر البر فدهشنا وفرغنا
لانتقاطنا عن العالم . وكان نظرنا مهما امتد لا يقع
على غير الماء . فآين طهران وآين أصفهان وآين
الاستانة ؟ آين الجبال وآين السهول ؟ لا شيء من
ذلك يبدو لنا غير الأمواج المترامية ، وشككنا في
إمكان الوصول إلى انكلترا لأننا لا نعرف مكانها
ولأنه لا يظهر لنا في الماء أي دليل نهتدي به . ثم
لما قبل لنا إن انكلترا ليست إلا جزيرة في وسط
بحر كهذا زادت دهشتنا وقلنا إنه يستحيل أن
يكون بها حكومة منظمة أو شاه قوى . ويستحيل

خاصاً في الدين فهم لا يتزوجون طول الحياة
ولما أشرق النهار ونظرنا إلى الجزيرة وجدنا
صوراً جديدة لكل مظهر من الحياة ، فالأبنية غير
التي نعرفها ، والنساء غير النساء ، والرجال غير
الرجال ، وهلم جرا

وسمنا في الصباح أجراساً تدق دقات عالية
متوالية ، فحسبنا قافلة كبيرة عندهم تسير ، ثم قيل
لنا إن هذه الأجراس عندهم بديل من الأذان في
مساجدنا ، وذكرنا إسماعيل بك بأن مثل هذه
المسابد ذات الأجراس موجود في قرى البلاد
الأرمنية

وبعد وقوف السفينة على الشاطئ تبودلت
التحيات بينها وبين إحدى قلاع المدينة باطلاق
المدافع ، ثم قيل لنا إنه غير مسموح بالنزول إلى المدينة
لأن البلاد التي نحن آتون منها بلاد غير نظيفة .
فأخذتنا العزة وقلنا لهم إننا آتون من بلاد إسلامية
وإننا لا نسمح بوصفنا بهذا الوصف . فأجابنا الربان
جواباً لم نفهمه أيضاً إذ قال إن عدم النظافة هو
المرض وإن في الهواء ببلاد الترك حيوانات صغيرة
جداً تجمل من يستنشق هذا الهواء غير نظيف .
فلم يقنعنا هذا التعليل غير المعقول وطلبنا إعادتنا إلى
فارس احتجاجاً على هذه الاهانة أو السفر بنا في
الحال إلى بلاد الفرنجستان

لكن السفير عاد فقال : « إنني مع استيائي
من هؤلاء الانكليز أرى أن عوائدهم بميدة جداً
عن عوائدها وعقائهم ليس كمقلنا فينبغي أن نمذرهم
وينبغي كذلك أن ننفذ أوامر الشاه كما هي . وقال
لنا ليرضينا إن ترجمة مايقوله الفرنجستان عن
الحيوانات الهوائية أن في بلاد الترك عدوى الطاعون

« التليسكوب » وقال إن الحساب الذي يجريه ليس
بحروف الجمل عن أسماء الأشخاص ولكنه عن
خطوط الطول وخطوط العرض على سطح الكرة
الأرضية

فلم نفهم قوله ولكننا نسبنا غموضه إلى جهله
وزاد احترامنا لمحمد بك وسائر علماء الفلك في فارس
لكن الفلكيين الانكليز من بحارة السفينة
أدهشونا بدقتهم الغربية في معرفة الأبعاد ، فأنهم
نظروا بآلاتهم الفلكية وحددوا الساعة والدقيقة
والأمتاح اللواتي تظهر فيها اليابسة وقد صدقوا في
تحديد كل ذلك . ولما جددوا بذلك في نفوسنا شيئاً
من الثقة بهم كافئنا محمد بك بمباحثتهم في علمهم
الفلكي ، فأجابوا بما قضى على تلك الثقة بتاتا حيث
زعموا أن الأرض كروية وأنها متحركة وأن الشمس
هي الثابتة وأن القمر يدور حولها . ونحن نعلم
عكس ذلك على خط مستقيم من أيام (جشيد) .
وختم محمد بك مجادلتهم بقوله : إنه لو كان الآن في
فارس لاستطاع أن يأتي لهم بالكتب التي يقنعهم بها

الفصل الحادي عشر

في مالطة

في الصباح التالي وجدنا السفينة الحربية التي
تقودنا إلى شاطئ جزيرة « مالطة » وأخبرنا المترجم
أنه كان يقيم في هذه المدينة جماعة من الدراويش
النصارى في عهد حروب قال لنا إن اسمها الصليبية
وإن الشرق اشتبك فيها مع الغرب . وقال إن
المسلمين احتلوا هذه الجزيرة في وقت من الأوقات
وقتلوا من فيها من الدراويش
وقال إن للدراويش الذين تقدم ذكرهم مذهباً

من الركن الذى أجلست به عند صعودنا إلى السفينة ولم تنطق بحرف مدة السفر إلا عندما وقفت السفينة فى مألظة فعند ذلك سألت عن علة الوقوف .

وفى أثناء هذه المدة زارنا حاكم المدينة وحيا السفير . وأشار إلى العلم الأصفر الذى يرفرف على الحجر وأبدى علامته الاعتذار ، وأفهمنا المترجم أنه يعرب عن أسفه لاضطراره إلى حجز السفينة وأنه لولا ذلك لسر من زيارتنا إياه ولأرانا المدينة وما فيها من المعاهد والآثار

وقال لنا إن نظام المحاجر لا يمكن التساهل فيه ، وإنه لو كان الملك نفسه آتياً من بلاد ملوثة لما استطاع مخالفة نظام المحاجر . وقال إن وصف البلاد المصابة بالعدوى بأنها غير نظيفة لا يمس أهلها وأن الملائكة أنفسهم يعتبرون ملوثين إذا جاءوا من بلاد بها عدوى

ثم ختم الحاكم كلامه بالسؤال عن الأحوال فى فارس وعن صحة الشاه — وما إلى ذلك من الأسئلة . وقد رأى فيروز خان أن اللياقة تقضى بأن يرد على هذه الخطبة بخطبة مثلها فأكد للحاكم أن الشاه يتمتع بالسعادة الكاملة وأن جنوده جاءوا إلى قصره فى السلطانية بمشرى جملاً بحملة برؤوس العصاة والمتمردين من خراسان ومازندار ، وأنه خرب قرى الثوار وقضى عليهم القضاء الأخير . والفضل فى الانتصار خمسة وعشرين أميراً من أبناء الشاه قادوا جيشه فى هذه الحملة . وقال إنه يرجو أن يسر

الحاكم بهذه الأخبار لما بين الدولتين من الود ولكن ظهر لنا من مراقبة وجه الحاكم عند سماع هذه الخطبة أن دهشته لم تكن أقل من دهشتنا نحن من خطبته . وقد قال لنا المترجم إن الحاكم

وأهم يخشون أن تنقل العدوى إليهم . وقال إنهم لكفرهم لا يسلون الأمر لله ويعتقدون بوجود العدوى .

وقال لنا المترجم إن المرضى بالأمراض المعدية فى داخلية البلاد يحجزون فى أماكن أحصن من السجون ، وإن الذى يحاول الفرار من بينهم قد يرمى بالرصاص كما يفعل بالأسير الهارب . ومن هذا القول فهمنا أنهم يعاملون المرضى مثل معاملة المجرمين وليس هذا أول شيء غريب بدا لنا من جانب الأوربيين

لكننا عوانا على الرضى فيجب علينا نحن أن نؤمن به فلا نحارب القضاء الذى شاء تأخيرنا أربعين يوماً فى المحاجر

وفى فترة التأخير زرنا السفينة الكبيرة التى تبحرنا فراعنا كبر حجمها ومدافعها وكثرة هذه المدافع ؛ واعتقدنا أن إخواننا الفارسيين لن يصدقوا عندما نقول لهم إن بالبحر سفناً بهذا الحجم وهذه الناعة . وقلنا مادام هذا هو استعدادهم الحربى فلا غرابة إذن فى امتلاكهم الهند . ولم نكد نصدق — وهذا هو وصفهم — أنهم يخضعون لحكم سيدة ويعترفون بها ملكة عليهم .

وكان بجوار السفينة سفن أخرى كثيرة محجوزة لأنها غير نظيفة . ولاحظنا اهتماماً فى تلك السفن بسفينتنا ، فقد كان كل من فيها يحاول النظر إلينا ؛ فلما سألنا عرفنا أنهم علموا أن بيننا سيدة شرقية بثيابها الوطنية فأرادوا أن يروها وهى بتلك الثياب . ويظهر أن القوم يعدون ثياب نسائنا من الأعاجيب .

وكانت النمرلية طول هذا الوقت لم تنتقل

ما هم في حاجة إلى تعلمه
ثم غادرنا الحاكم ونحن ننظر إليه مندهشين
وهو مندهش منا أيضاً

الفصل الثاني عشر

السفينة الحربية

احتفل بنا قائد البارجة الحربية احتفالاً عظيماً
عندما انتقلنا إلى سفينته ، ومن عجائب هؤلاء القوم
أنه قابلنا ورأسه مكشوف وقبمته في يده ، وقد أفهمنا
الترجم أن هذه العادة عندهم دالة على الاحترام . ولم
يكتف في تحيتنا بالكلام بل أصر كذلك بإطلاق
المدافع .

وقد وجدنا عدد الجنود الذين في هذه السفينة
يكفي لتعمير مدينة من مدن الفرس . وكان فيها
نساء قبل لنا إهن يقمن بيمض الأعمال في الحرب .
ولا أعرف ما هي هذه الأعمال ولا أى شأن للنساء
في الحروب

وحجى لنا بالفواكه الشهية وبالأطعمة اللذيذة
وقال سفيرنا إنه لو كان عند الشاه سفينة واحدة
مثل هذه لسحق روسيا سحقاً . وإن شاء الله متى
وصلنا إلى اسكترافانا سنتمتع صناعة هذه السفن .
ولن يكون ذلك صعباً علينا لأننا نحن الفارسيين
لا نعيجز عما يقدر عليه الأتراك ؛ وما دام الأتراك قد
شادوا مثل هذه السفن وهم بشهادة العالم كله أضعف
الناس ذكاء ، فأننا سنشيد أسطولاً بلا ريب
ثم عرفنا ربان السفينة الحربية بمساعدته ومن
بينهم طبيب ، ومن بينهم أيضاً قسيس هو العلامة
الوحيدة على تدين هؤلاء القوم الذين يتغضى النهار
ووراء الليل ولا يراهم يركبون ولا يسجدون

مسرور من انتصار الشاه . وأخبرنا أن في بلاده
ما يسميه بالحرب الانتخابية وأن تأخيرنا في الحجر
كان في مصلحتنا لأننا لو وصلنا إلى اسكترافا قبل
انتهاء هذه الحرب لما سررنا من الحالة هناك . وقال
إنه يأمل أن يبشرنا قريباً بانتصار الشاه الإنكليزي
على خصومه الذي سماهم الحاكم « بالمعارضة »
وقد أراد المترجم أن يشرح لنا معنى المعارضة
فذكر أشياء لم نفهمها مثل قوله « الضمانات الدستورية
والحقوق البرلمانية » وما إلى ذلك من ألفاظ لا معنى
لها في لغتنا ، وكل الذي فهمناه أن هناك شعباً في البلاد
وأن الحكومة قد لا يكون مركزها وطبداً ، وأن
أعضاء سفارة مثلنا لا يكون وصولهم ملائماً إلا عند
وجود حالة مستقرة

ولكننا لم نفهم معنى قول الحاكم إن المعارضة
تهزم كل يوم ولكن أعضاءها لا يتفرقون ولا
يقتلون . ولا أعرف كيف إذن يكون انهزامهم
والأعجب من ذلك أن الملاك الذي تدور فيه
المبارك مكان واحد لا يتغير ، اسمه (البرلمان) ويظهر
أنه ميدان حرب
ولكن الحاكم استنكر أن تسيل الدماء بهذا
الميدان .

وقال محمد بك يظهر أن الفرنجستان على غرابة
أطوارهم لا يعرفون معنى للحكومة القوية فهم لذلك
يتركون خصوم الشاه على قيد الحياة
ونظر الحاكم إلى سفيرنا وقال : « إنك بلا ريب
ستعلمهم أنظمة الحكم الصالح فتساعد الشاه
الفرنجستاني على التخلص من خصومه »

عند ذلك بدا السرور على وجه السفير الفارسي
وقتل شاربيه وقال : « إننى على بركة الله سأعلمهم

وبصوبه من الرؤوس إلى الأقدام كأننا مواش يريد أن يشتريها . ولست أشك في أنه لو كان يستطيع امتلاكنا لفعل بنا ما يفعله بالحيوانات التي يصيدها ، فقد قال إنها تعرض في بلاده في حدائق عامة ليراها الناس

وكان معهما شاب قال لنا المترجم إنه « شاء زاده » أى ابن ملك من ملوك الفرنجستان في جزيرة تدعى صقلية ، ولكن ملك هذه الجزيرة وأمرائها قد طردوا منها ، فهم لذلك ينتقلون من بلد إلى بلد ويشتغل بعضهم بالتجارة والبعض لا عمل له . وقد اعترانى الدوار لما قلت في نفسي إن أبناء الشاء سيكونون كذلك جوايين في الآفاق إذا طردوا من بلادنا وكان هذا الأمير متواضعا لا يستطيع الانسان أن يعرف أنه أمير إذا لم يسمع عنه ذلك . وكان في صحبته أحد الوزراء

ومنذ ركبنا السفينة جمعت هي أن أتعلم اللغة الانكليزية فأخذت أسأل المترجم عن اسم كل شيء وكل مكان وأحفظ هذه الأسماء . وكذلك لاحظت أن السفير يحاول تعلم هذه اللغة بقدر الامكان . وكان في استطاعتنا أن ننطق ببعض كلمات انكليزية عندما قابلنا السيدة التي تقدم ذكرها في السفينة الحربية . فكانت تبسم عندما ننطق بهذه الكلمات . وقد أدهشنا من أمرها أنها تحسن القراءة والكتابة وتفهم ما تقرأ كأى رجل من الرجال . ولكننا لم نعرف هل خطها بلقها جميل أو غير جميل ، لأننا لا نعرف قواعد الخط الفرنجستانى . لكن الذى أستطيع أن أؤكد أنه الخط الفرنجستانى قبيح في جملة لأن الخطوط عندهم كلها متشابهة ولاهم يكتبون على عجل . ولم ألاحظ توقيعاً من

ولا يمتاز القسيس عنهم إلا بأن ثيابه سوداء . أما فيما عدا ذلك فهو يشبههم أتم الشبه ولحيته مخلوقة وكذلك شاربه وطبيهم كذلك لا يابس ثياباً تميزه ، ولكنه

بغير ريب على جانب عظيم من العلم فإنه لما جس نبضى ورأى لسانى أشار لى بالدقة على مواضع الألم فى رأسى . وقال لى إن فى عينى ألماً وإبنى قليل الشبهة للطعام . ولقد صدق فى كل ما قاله

ولما أعطانى الدواء وجدت ثمرته الماجلة وهو لا يكتب حجاباً ولا يستعين بعلم الفلك كيرزا أحمد الطبيب الفارسى

ثم نزلنا مع الرهبان إلى الطبقة السفلى من السفينة فوجدناها لا تنقص فى الضوء ولا النظافة ولا حسن الترتيب عن الطبقة العليا . ووجدنا بها سيدة إنكليزية فى نهاية الجمال . ولكن جالها بخالف الجمال الذى نعرفه فى بلادنا فإن شعرها أصفر مثل أسلاك الذهب ووجهها فى استدارة القمر . ولم تحاول إخفاء وجهها عندما رأتنا . ولم يكن فى يدها برقع ولا مندبل تتق به الأعين الناظرة لوهى أرادت ذلك . ولقد كلمتنا دون خفر ولا دلال كأنها رجل مثلنا . وأفهمنا المترجم أنها تسأل عن الشركسية فأجابها السفير أنها ليست إلا رقيقة وأنها لا ترجو أكثر من أن تترك فى مكائها

وكان مع هذه السيدة سائح أبيض الشعر كثير التجارب لم نفهم الفرض من رحلته إلا أنه يقول إنه يصيد الطيور والوحوش والأسماك . وهذا السبب الذى يزعمه لا يبرر إنفاقه النفقات الطائلة فى الرحلات ، فلا بد أن يكون له غرض آخر يخفيه وعندما وقع نظره علينا أخذ يصعد فينا نظره

السكين ليقطع بها قطعة من اللحم حتى جرح أصابعه
وكنت في أثناء الطعام أسهو فأخذ بأصابعي
بعض القطع وأدسها في فمي ثم أتنبه فأدور ببصري
لأعرف هل رأي أحد وأنا أرتكب هذا الخطأ
الذي يروونه لا يفتقر

ولاحظت أن لديهم آداباً في الطعام تخالف آدابنا.
منها أن أمام كل فرد على المائدة طبقاً خاصاً لا يجوز
أن يأكل من طبق غيره ، وأنه ليس مسموحاً
بالشرب من الزجاج أو الآنية ولكن يسكب
الإنسان منها في الكوب على قدر ما يريد . ولكل
فرد كوب خاص به . وكذلك لا يجوز له استعمال
الملقعة أو السكين أو الشوكة التي لغيره ولا أن
يستعمل سكين الزبد في قطع اللحم ولا سكين اللحم
في أخذ الزبد . وهم يعتبرون إمساك البطة أو الدجاجة
بيد وقطعها باليد الأخرى جريمة شنيعة . ولهم طريقة
خاصة في قطعها بالشوكة وبسكين كبير . وليس من
الآداب عندهم أن يقدم الإنسان إلى جاره قطعة من
اللحم . وبالجملة فقد رأيت متناقضات مذهشة لا يسمها
هذا الكتاب وسأقصها على إخواني متى عدت إلى
إيران إن شاء الله

الفصل الثالث عشر

أعضاء السفارة بغادر ربه مائة

أخيراً تحركت بنا السفينة من جزيرة الدراويش
فرأينا البحر مملوءاً بسفن من أحجام مختلفة وكلها
في اتجاه واحد هو الذي نقصد إليه . وقد لاحظنا
أنهم يستمينون بآلة كالتى نعرف بها القبلية يسمونها
(البوصلة) وهم يقولون إنها تبين لهم الشرق والغرب
حتى في الليل .

توقيعاتهم على شكل طغراء ، ولم أشاهد كذلك
تركيباً جيداً كالثلاث عندنا ، وأعرب ما في خطوطهم
أنهم يكتبون من اليسار إلى اليمين . ويبتدىء الكتاب
عندهم من آخره في الجهة اليسرى .

وهذا الخلاف بيننا وبينهم ذكرنى بتقاليدهم
البعيدة عن تقاليدنا في الطعام ، فإن آدابنا في الأكل
بسيطة خالية من التكلف . ولكن لا تسل عن
مقدار دهشتنا عندما دعينا لتناول الطعام في السفينة
أول مرة .

رأينا على المائدة أنواعاً متعددة مما لا يصلح
استعماله إلا في الحروب : رأينا سكاكين من أحجام
مختلفة وآلات تشبه السكاكين ، ولكن أطرافها
كثيرة مدببة تدل هيئتها على أنها تستعمل في
السجون لقلع عيون المجرمين . ورأينا أصنافاً كثيرة
من الأدوات على المائدة وعدداً جسيماً من الأطباق
ولقد كانت السكاكين من الكثرة بحيث تكفى
لتزيين جميع الأحزمة في حاشية الشاه بدلا من
الخناجر

وتوجد غير الشوك والسكاكين ملاعق كثيرة .
وقد خطر ببالي أنه لا بد من انقضاء زمن طويل في
تعلم طرق استعمال هذه الآلات لنقل الطعام بين
الأطباق وبين الفم خصوصاً بالنسبة لأناس متقدمين
في السن مثلنا تعودوا منذ الطفولة أن ينقلوا طعامهم
بأصابعهم إلى أفواههم دون احتياج إلى هذه
الأسلحة الحادة

وقد أصر السفير على أن نسلك مسلحاً يقلل
من ضحك هؤلاء القوم علينا وسخر بهم بنا ، فأصرنا
باعتقاد عاداتهم . لكن أول تجاربي في ذلك كاد
يجر علينا خطراً مستطيراً ، وذلك لأنه ما كاد يمسك

محرراً . أما الأصباغ الأخرى مثل النيلة الزرقاء فما لا يجوز صبغ الشعر به
وقد قدم ذلك البحار جزءاً مما معه من الصبغة
إلى السفير ليصبغ لحبته إذا أراد ، فشكره على ذلك
وسأله عن اسمها ليشتري من انكثرا شيئاً منها
ويبعث به هدية إلى الشاه

ولكن الحسن الحظ لم يتبع السفير مشورة
البحار ولم يصبغ شعره ، وقد وجدنا شعر البحار
في اليوم التالي شديد الاحمرار بذكر أن يصبغ
بالسواد ، ولما سألناه عن السبب قال : إن رطوبة
البحر أثرت في الصبغة فأفسدتها ، ولذلك جاء لونها
كذلك . ورأينا شديداً الحجل لأن الشعر الأحمر
شعلة في بلاده

ثم بدت لنا الأرض عن بعد فهلل البحارة .
وبدا عليهم الطرب . وعلمنا أن هذه الأرض هي
انكثرا . ولما اقتربنا منها لم نجد ذلك الإشراق الذي
يحمده الإنسان وهو مقبل على مدينة في فارس .
بل رأينا كسفاً من الضباب كسواد الليل كشف
عن مناظر غامضة لأبنية ومناظر . وأدركنا عند
ذلك علة ما نعرفه عن قلق الانكليز في بلادهم وميلهم
إلى الاسفار ، لأن الانسان بطبيعته لا يحب أن
يوجد إلا حيث توجد حرارة الشمس وضوؤها .
وقد حاول المترجم أن يقنعنا بأسباب أخرى لميل
الانكليز إلى الاسفار ، وبالمصالح التي تقتضي ذلك
في أمحاء ما يسميه بالامبراطورية . ولكننا وجدنا
هذه الأقوال رافهة لا يراد بها إلا التنصل من وصف
بلادها بأنها غير صالحة للسكنى . ولم نفهم كلمات
غامضة كثيرة كقوله «العلاقات الأجنبية» . والتوسع
الاستعماري « ولعله يعني بذلك غارات الحدود . وقد

وقد سمعنا أن كل السفن التي رأيناها محملة
بالبضائع وأنها تقصد إلى بلاد الانكليز ، فدهشنا وقال
السفير للربان : « هل بلادكم مصابة بمجاعة أم
الانكليز عاجزون عن صنع أى شئ لأنفسهم فهم
دائماً في حاجة إلى من يخدمهم ؟ »

فأجابنا الربان بواسطة المترجم أن الانكليز
ليسوا في حاجة إلى كل هذه التاجر ولكنهم ميامرة
يقومون بين الدول بعمه الوسيط ، وهم صناع فهم
يأخذون الخامات من بعض البلاد ثم يردونها إليها
مصنوعة ؛ فلم يقنعنا هذا القول وأصررنا على
أن بلادهم فقيرة . فقال لنا : إن هذه المهمة التي
تقوم بها هي أشرف المهمات ، وإن المجد أن تبلغ أية
دولة مثل هذه الغاية . واستشهد على صحة قوله بأرقام
كثيرة . وقرأ لى قصاصات من الورق لم أفهم
منها شيئاً

وبعد أيام قضيناها في البحر وصلنا إلى صخور
وراءها سهول واسعة . وقال المترجم أن هذه الصخور
هي جبل طارق وإن البلاد التي وراء هذه الصخور
كانت مملوكة للمسلمين في وقت من الأوقات . وإن
اسم طارق الذي سميت به الصخور هو اسم لأحد
قواد المسلمين ، وقص علينا المترجم قصة طارق هذا
وتحدث عن بلاد الأندلس ، فزمت على كتابة هذه
القصة ونشرها في إيران لأدل قومي على عظمة التاريخ
الإسلامي

ولما استأنفت السفينة السير وجدنا أحد البحارة
وهو شائب يضع على رأسه أصباغاً خاصة ليجعل
بياض شعره سواداً ، فمعجبنا من طريقته لأننا
لا نمرف في بلادنا شيئاً من هذا القبيل غير الحناء .
لكن الحناء لا نعيد الشعر إلى لونه الأسود بل يجعله

وودعنا البحارة ورؤسائهم ومشينا في المرفأ كأننا
فصيلة من الجيش . ولكن الانكليز قابلونا بالابتسام
الذي مظهره الترحاب وحسن النية وإن لم يخف علينا
أنهم كانوا يضحكون منا

وكانت الشراكسية تمشي وراء موكبنا بين
« سميد » و « محبوب » وقد استلفت أنظار
الانكليز نساء ورجالاً فاحتشدوا حولنا أينما مرنا .
والمجيب أنهم لم يلتفتوا مثل هذا الالتفات إلى
السيدة الجميلة التي كانت معنا في السفينة ، فاهتمهم
في الحقيقة لم يكن بالمرأة من حيث أنها امرأة ، بل من
حيث أنها محجوبة . ولاحظنا أن نظراتهم للنساء
الساافرات كانت نظرات عفيفة . ولقد ذكرت
عندما خطرت ببالى هذه الحقيقة قول شاعرنا
السعدى « إن الفاكهة المنوعة هى أشهى الفواكه
إلينا وأحبها » وقلت في نفسى إن الشاء في فارس يرسل
النادين في الطرقات قبل نزول زوجته من قصره إلى
مكان آخر منذرين باخلاء الطريق ممن فيه ويقتل
من بمضى الأمر . وذكرت أنه بالرغم من ذلك فانه
لا يكاد يوجد رجل واحد من أهل طهران لم ينظر
وجه الملكة خلصة من ثقب النافذة . ولكن هنا في
بلاد الفرنجستان تمشى ملكة الانكليز فلا ينظر إليها
أحد غير النظرة العادية التي ينظرها الرجل إلى الرجل
وبما استلفت نظرى في هذه المدينة عظم الباني
وكثرتها وحسن زينتها . ولقد قدرنا أن كثرة المارين
في الطريق سببها رغبة الناس في مشاهدة سفير
الشاء ملك الملوك إلى الملك الانكليزى . ولكن
ساءنا أنه لم يتقدمنا قراش من قبل حاكم المدينة بطرده
الناس من أمامنا كما فعلنا نحن عند ما وصل إلينا
السفير الانكليزى . وأقول إنه لو كانت بعض

أفهمناه أن ذلك لا يستدعى المهاجرة وأنه يكفى أن
ترسل الحكومة الانكليزية بعض قبائلها لنهب
المحصولات في الجهات المجاورة واختطاف الرقيق
والنعم والماشية

ولما أفهمنا المترجم الانكليزى ذلك أصر على
عناده وأبى أن يفهم وأصر على أن النظم في بلاده
خير نظم في سائر الوجود وعلى أنه ليس أحسن
من حكومته وشاهه وقال : « انتظروا حتى تصلوا
إليها فتروا بأعينكم ما لا تستطيعون إدراكه بالسمع ،
وسترون هل فارس أكبر أم انكلترا ؟ »

الفصل الرابع عشر

أعضاء البعثة في طهران

رست بنا السفينة أخيراً على الشاطئ . ولطول
المدة التي قضيناها بالبحر لم يفكر أحدنا فيما اعتدناه
من قبل من استشارة النجمين . ولم يخطر ببالنا هل
الساعة ميمونة أو غير ميمونة بل تأهبنا للنزول في
الحال . وقد أطلقت المدافع عند نزولنا ورفعت
الأعلام . ولكننا لم نجد أحداً من قبل الحكومة
في انتظارنا فامتعض السفير فيروزخان

ولما أبدى هذه الملاحظة للمترجم قال إن
العاصمة لا تزال بعيدة عن هذه المدينة بعد طهران
عن اصفهان ، وقال إن المدينة التي نحن فيها هى
بلايموث

كان يوم نزولنا من السفينة يوماً سميداً لأننا
والحق يقال لم نطمئن يوماً على أنفسنا قط ونحن في
البحر . وقبل نزولنا كلفنا أتباعنا بجمع أمتعتنا .
وأعاهم البحارة على ذلك وحمل كل منا سلاحه
فوضعه في حزامه وحمل ذوو الرماح منا رماحهم

إن أما كن النوم قد أعدت لنا ، فذهبتا انراها ،
ووجدنا لكل واحد منا غرفة خاصة . ولست
أستطيع وصف الأسرة فإنها الجمال لا تكاد تختلف
شيئاً عن عرش « الطاووس » الذى يجلس عليه
الشاه فى الأعياد . وقال لنا المترجم إن السرير الذى
أعد للسفير قد اختير عن عمد من الأسرة المصنوعة
على الطراز الموغولى المعروف بمرش الطاووس
قال السفير : « لا إله إلا الله ! إن الحظ لم
يكتف بإرسالنا إلى الفردوس حتى يجعل الحور فى
خدمتنا ! »

ثم حدثت حركة غير عادية فى الفندق عند ما علم
القيمون به بوصول الشركسية فقد كان كل منهم
شديد الحرص على أن يراها . ويظهر أنه لم يفتقد
أحد منهم أنها ليست إلا جارية . ولذلك حينها
الجميع كتحيتهم للسفير نفسه . حتى مترجنا
الانكليزى صار كأبناء جنسه يؤدى لها من الاحترام
ما ليس من حقها وصار يطلق عليها كلمة « اللادى »
ولما سألناه عن معناها عرفنا أنها تعنى كلمة « الهانم »
فاستاء السفير من هذا التعبير وطلب إليه ألا يسميه
لأنه يعلم أنها جارية

ولقد كانت دهشة الانكليز عند رؤيتها أشد
من دهشتهم عند رؤيتنا نحن حتى كان القيمون
بالأبنية التى أمام الفندق ينظرون من النوافذ لهم
يبصرونها . وكانوا يتحدثون بأصوات عالية لم نفهم
منها شيئاً ولكن أحاديثهم بغير شك كانت عنا وعننا
وقال السفير : « إذا كان الجوارى يعاملن هذه
المعاملة فى انكلترا فكيف تعامل الزوجات ؟ لا غرابة
إذن مع احترامهم للنساء أن يستنكفوا خروج
الخصى مع إحدى الزوجات ليحرسها »

الفارسيين ضحكوا من ثياب ذلك السفير يوم قدومه
كما يضحك الآن بعض الانكليز من ثيابنا لأعدمهم
الشاه إرضاء لضييفه أو لجلدهم إن رأى الضيف
الاكتفاء بذلك

ولما خرجنا من المرفأ أعد لنا المترجم عربات لاتشبه
العربات التى رأيناها فى الآستانة لأنها كبيرة الحجم
مريحة حسنة النظر وفضلاً عن ذلك فلا تجرها الخيل
بل يظهر أن بها آلات كالتي بداخل السفينة تساعدنا
على الحركة . وقادتنا هذه العربات إلى مكان قال عنه
المترجم إنه خان . ولكننا لما رأينا وجدناه أنخم من
قصر الشاه

دخلنا فكان أول ما رأينا عند الباب ردهة
كالتي فى قصر الملك بها امرأة عظيمة وآلة توضع
عليها القبمات ، ووجدنا سيدتين جميلتين على مكتبين
مخترفين وليس على وجههما براقع . ووجدنا رجلاً
فى ثياب أنيقة فى استقبالنا فمررنا بغرف مقفلة لم نر
أبواباً أجمل من أبوابها ، ثم أرانا جناحاً به عدة غرف
مخصصة لنا . وقال لنا المترجم إنه غير مسموح لنا
بأن نصفق أو ننادى بهذا المكان . وأرانا نقباً بالحائط
فيه زر صغير قال إننا إذا لمسناه سمع البواب دقة
الجرس بالقرب منه فيأتى . وفعلنا ذلك على سبيل
التجربة

فلما تبيننا صدق قوله تذكرنا القصص التى يقال
عن بلاد الجن . وكان كل شيء أمامنا بهر النظر
حقاً فإننا فى قصر لم يرق فى مثله أى ملك من ملوك
الفرس من عهد أنوشروان . ولا يرى الفارمى
ولا فى الحلم مثل الذى به من أسباب الراحة
ولما استرحنا قليلاً فى غرفة الاستقبال جاءت
فتاة انكليزية ساحرة الجمال وقالت لنا بواسطة المترجم

الفصل الخامس عشر

ما لم المربية يزور السفير

كان « ميرزا فيروز » شديد الغيظ لأن أحداً من رجال الحكومة لم يأت ليزوره ، وقد كان ذلك أقل واجب له بعد أن أهملوا حفلة استقباله مع أنه يوم وصول السفير الانكليزي إلى طهران أقيمت حفلة لأجله لا يقام مثلها إلا للملوك

ولم يخف السفير شيئاً من غيظه عن المترجم بل قال له في صراحة : إنه آسف لمجيئه هذه البلاد التي لم يكن ينتظر أن يعامل فيها مثل هذه المعاملة وأنه مع اقتناعه باختلاف العادات فإنه يأبى أن يصدق أن إهمال الحفاوة بتأثراً من العادات الانكليزية

لكنه لم تطل إقامتنا بالفندق حتى أخبرنا المترجم بأن حاكم المدينة آتٍ لقابلتنا . ولقد جاء وحده لا يصحبه أحد من رجال حاشيته ولا يتقدمه الفرسان ولا حملة المشاعل ولا حامل « الشوبك » ولا الفراشون ليتردوا الناس من الطريق . بل كان هذا الحاكم في نهاية البساطة يحمل عصاه في يد وقبعته في اليد الأخرى

وبعد أن حيانا جلس على أقرب مقعد أمامه ، فدهش السفير من ذلك كل الدهشة لأن رجلاً كبير المقام لا بد أن يجلس في صدر المكان . ولولا أن المترجم قال لنا إن هذا هو الحاكم لاستحال علينا أن نمتد ذلك . وزادت دهشتنا عندما علمنا أنه صاحب سفن كثيرة وأنه بطل من أبطال الحروب وأنه لا يزال محتفظاً بقوته بالرغم من أنه تجاوز السبعين .

ورأى سفيرنا — ما دام هذا هو أول حاكم

انكليزي تقابله — أن يكون الأثر الذي تركه في نفسه جيلاً بقدر الامكان . وبذلك استجمع كل ملكاته الخطائية لبقى أمامه أبدع ما يمكن أن يقال

وبعد أن سأله ثلاث مررات عن صحته وحالته ، وقف وطلب إلى المترجم أن ينقل أقواله إلى الانكليزية . وأتى الكلمة التالية :

« الحمد لله إذ رأينا فيك يا حاكم المدينة رجلاً غرض الشباب موفور الصحة قادراً على القتال ممتعاً ، فضلاً عن مزاياك النفسية العالية بصفات تحبب في الاقتراب منك ، فالعين لا تنصرف منك إلا إليك لجمال طلعتك ، ونحن سعداء بالوجود في حضرتك . وإن من حسن الطالع أن نتعرف بك فإن رؤيتنا إياك دانتنا على أن ملك الانكليز أحسن الملوك رأياً في اختيار الحكام ، وأن ملكاً حوله أعوان من أمثالك لجدير بصداقة فارس »

كنا نتظر أن يرد على الخطبة بخطبة مثلها يبالغ فيها في مدحنا . ولكنه وجم كأنه لا يستطيع الكلام . وبدت على وجهه علامة الحيرة كأنه يستنكر مدحنا إياه بما يعرف أننا لا نصدق وإن كنا نقوله

وقد بقي السفير عدة دقائق ينتظر الرد . فلما لم يسمعه أخذ يقتل شاربيه ويدخل أصابعه في لحيته . وأخيراً فطن الحاكم الانكليزي إلى أن السكوت لا يليق فقال : إن الجو جميل

رضى السفير ببعض الرضى لأنه فهم أن الحاكم يريد أن يقول إن الجو جميل بوجودنا كما نقول نحن في فارس إن الشمس مشرقة بوجود الضيف . ونظر كل منا إلى الآخرين

ولما انصرف الحاكم قال لنا السفير : هل

نومه موقدآ ، ووجدنا الفراش سخناً فكدنا ننسى أننا ببلاد شديدة البرد . ولما انقضت ساعات من الليل قزعنا عند ما سمعنا صوت السفير يصيح فخرجنا لتعرف حقيقة الأمر فوجدناه في ثياب النوم يمشى وفي يده شمعة في الممر الذي بين الغرف وهو يلعب الفندق وأصحابه ، وجاء أصحاب الفندق وخدمه والنائمون في الغرف الأخرى وفيهم سيدات ليروا ما ذا أصاب سفيرنا فقال جلا بعض كلماتها فارسي والبعض انكليزي معناها أنه كاد أن يموت وأنه يظن أن أصحاب الفندق يريدون قتله بشدة الحرارة التي في غرفته

وقد تبين من جواب أصحاب الفندق أنهم عرفوا أن نزيلهم آت من بلاد حارة فأدفعوا الفراش وزادوا من حرارة المدفأة على أن يقللها هو إلى الحد الذي يريده قبل أن ينام

ولما منعنا السبب الذي يتأذى منه السفير عاد كل منا إلى غرفته وهو يفكر في غرابة أطوار الانكليز الذين يختلط نساؤهم برجالهم حتى وهم في ثياب النوم والذين ليست لديهم أية فكرة عما نسميه نحن بأماكن الحريم . وقد وجدنا نساءهم بالليل أقل جمالاً منهم بالنهار لأن كل واحدة منهم تضع على جبينها وخديها قطعاً صغيرة من الورق لعلها أحجية يقصد بها إلى الوقاية من الحسد والسحر

ولقد أتممتنا في هذا الفندق صعوبة الحصول على الماء لأننا لا نستطيع أن نأمر الخادم باحضار ما نشاء من الماء إلى غرفة النوم للوضوء أو إلى غرفة الطعام لغسل أيدينا بل علينا أن ننقل نحن إلى مكان الماء . ويظهر أن الماء عندهم قليل لأنهم يجعلونه في أواني دقيقة بالحوائط ويفرغون منه بمقادير قليلة . وقد

رأيت حماراً مثل هذا ؟ إن أحد السوق في فارس أذكى من هذا الحاكم الانكليزي وأفصح منه لساناً . فأخذنا نظري فصاحبة سفيرنا وذلاقة لسانه وسرعة خاطره ، وقلنا إنه بيض وجوهنا ووجه الشاء الذي أحسن اختيار من يمثله في البلاد الأجنبية . واتفقت كلمتنا على أنه ليس في العالم كله حاكم أشد عجراً من حاكم بلايموث

كان المشاء في الفندق على منوال المشاء في السفينة سوى أن الأطباق والملاعق والشوك والسكاكين كانت كلها من الفضة . فسألنا المترجم هل هذا هو منوال الحياة العادية في الفندق أم زيد في الاستعداد حفاوة بنا . وقلنا له إن الفنادق عندها لا تقدم الطعام للنزلاء بها بل بجوار كل خان بدال يأخذ منه النزيل ما شاء من طعامه . على أن الطعام الذي قدم لنا هنا جدير بأن ينسى المرء ما يقال عن كرم حاتم

أكد لنا المترجم أن هذا هو منوال الحياة العادية بالفنادق وأنهم لا يقدمون لنا الطعام كرماء فهم بماء عما نفهمه من معنى الكرم ، وأن أصحاب الفندق سيقدمون لنا عند ما نرحل عنهم قاعة بالحساب يدرج فيها ثمن كل شيء مهما كان تافهاً . وأتينا إذا كسرنا لوحاً من الزجاج أو كأساً فانهم يحتسبون ثمنه علينا . وقال لنا أكثر من ذلك إنهم لا يقبلون المجادلة في الأثمان التي يذكرونها بقوائم حسابهم ولا يصل الأمر إلى القاضي ليفصل في النزاع على الأثمان فان كلمة أصحاب الخان مصدقة ، وأن الذي يرفض دفع ثمن ما يأكله أو أجر إقامته تصادر أمتعته ، وقد يسجن أيضاً

ولما حان وقت النوم وجد كل منا في غرفة

يصلى ركعتين فنفخوا في الأبواق مرة أخرى .
وأندرنا المترجم بأننا لو تأخرنا دقيقة واحدة فإن
العربات تتركنا وتسير

قلت : « لماذا هذا التعجل ؟ إن الشمس ليست
حارة هنا مثل بلادنا حتى يكون لكم عذر في التبكير
قبل أن تشتد الحرارة »

فقال المترجم : « نحن لاتهمنا الحرارة والبرودة
ولسكننا زن الزمن بأدق الموازين ولا يفرط أحدا
في لحظة من عمره »

وقال محمد بك : « وهل من التفريط في العمر
أن نصل ركعتين ؟ » فقال المترجم : « قد لا يكون
ذلك من التفريط في عمرك ولكن لماذا تترك السائق
في انتظارك ؟ صل ألف ركعة إذا شئت وارك
السائق وعمرته ؟ »

عند ذلك سمعنا الأبواق تنفخ مرة أخرى
وصاح السفير بنا أن نسرع ، ولعننا ولعن الساعة
التي رافقناه فيها ، فتبعمنا إلى الطريق
ركبت أنا والسفير والمترجم في عربة ، وسعيد
ومحبوب والشركسية في عربة أخرى ، وسائر أعضاء
السفارة في عربة ثالثة ، وكان في كل عربة من
هذه العربات مسافرون آخرون

وكان بجانبنا فتاة إنكليزية سافرة الوجه لم
تتخرج من ملامسة جسمي لجسمها مع اختلاف
ديننا كما نتخرج نحن من ملامسة اليهود . ويظهر
أن من صفات الإنكليز أنهم لا يعرفون الطهارة
والنجاسة في الآدميين فهم يمسون بيد اليهودي
ثم لا يرون ضرورة للاستحمام كأنهم يمسون
بيد واحد من أنفسهم . على أن هذا في الحقيقة
لا يدعو إلى الدهشة ما دام القوم يأكلون لحم الخنزير

حاول السائس مرة أن يأخذ مقداراً من الماء الساخن
في حمام الفندق ليفسل الخيل في الاصطبل فضج
أصحاب الفندق . أما فيما عدا ذلك فإن فندقهم أغخم
من قصور الشاه

ولكي أقرر الحقيقة يجب أن أعترف بأننا بالقياس
لهم أناس في نهاية السذاجة

الفصل السادس عشر

في الطريق إلى لندن

طلب إلينا المترجم أن نستمد للسفر إلى لندن ،
وقد امتعض السفير من ذلك لأنه كان يتوقع أن
ترسل الحكومة إلينا مندوبين يرافقوننا إلى تلك
العاصمة ، وكان يظن أن تأخرها عن ذلك إلى الآن
إنما يرجع إلى رغبة الوزراء الإنكليز في جمع الهدايا
كما حدث عندما جاء السفير الإنكليزي إلى طهران
وكذلك حمل تأخرهم على أنهم يصنعون عدداً
كبيراً من الرايات الفارسية ليرفعوها على طول
الطريق وعرضه بين بلايوت وبين لندن

لكن المترجم قضى على كل هذه الآمال بتحديد
ساعة السفر في صباح اليوم التالي . وقال إننا سنسافر
في عربات عمومية تنقلنا وتنقل غيرنا ، وأن السائق
لن ينتظرنا إذا طلبنا إليه الانتظار ، فيجب أن
نكون متأهبين في اللحظة المحددة للسفر . وقال إن
كل شيء في إنكلترا بمواعيد معينة ، وإن أي عمل
من الأعمال لا يتعطل بسبب التأخير ولو كان هذا
التأخير صادراً من الشاه الإنكليزي نفسه

ووجدنا المترجم صادقاً فيما يقول لأن العربات
ما كادت تقف على باب الخان حتى نفخ السائقون
في الأبواق ، فبدأنا نمشط ذقوننا وهم أحدنا بأن

الفصل السابع عشر

مدينة الحمام

استأنفنا السير فوصلنا إلى مدينة (بات) ومعنى هذه الكلمة باللغة الإنكليزية هو (الحمام) فاسم المدينة إذن هو مدينة الحمام لأن بها حمامات كثيرة ليست تشبه حمامات الماء الساخن عندما ولكنها آتية من يتابع يقولون إنها معدنية . وهم يقولون إنها تشفى من الأمراض مثل مياه بروسته بالقرب من الآستانة . وكان السفير يشكو وجعاً في الظهر فأشاروا عليه بالاستحمام في هذا الماء فلما قبل قادونا إلى بحيرة ينزل في مائها الرجال والنساء معاً .

ولقد كانت مشاهدة الحمامات الإنكليزية سيئاً في إلمارة المناقشة بين السفير وبين المترجم في موضوع النظافة والطهارة عند الفارسيين وعند الإنكليز . فالفرق الأخير لا يعرف الطاهر والنجس ولكنه يعرف التنظيف والقذر . فالخمر عند الإنكليز طاهرة لأنها نظيفة ، والماء لا يكون عندهم طاهراً إذا لم يكن نظيفاً . وقد غضب السفير في نهاية هذا الحديث وقال : « أنتم قوم لا يحق لكم التكلم عن النظافة مادمتم تأكلون لحم الخنزير ، وكل الحمامات التي في العالم لن تطهركم من نجاسته »

فقال المترجم « لا تكتر من الكلام في هذا الموضوع فأنك ستأكل من لحم الخنزير قبل أن تغادر هذه البلاد ، ولن يكون في وسعك أن تميز بينه وبين اللحوم الأخرى »

وبعد الاستحمام بهذه المدينة استأنفنا السفر إلى العاصمة وقد وجدنا عند بابها عربتين من عربات الشاه الإنكليزي في انتظارنا كما وجدنا اثنين من

وإذا كنا نمتاز عن الإنكليز في كل شيء فأنهم بغير ريب يمتازون عنا في صنع هذه العربات لأن « التختروان » عندنا وهو « هودج » يحمل بين فرسين لا يمكن أن يكون كالعربة ، فهو دائماً يرتج ويهتز بمكس العربة التي يمكن أن يشرب فيها المرء فنجاناً من القهوة دون أن تسقط قطرة منه على ثيابه . بل يستطيع أن يقف فيها ويصلي ويستطيع أن يدخل في الترجيلة وأن يتناول الغداء وقد فكرت في إدخال صناعة العربات بالبلاد الفارسية عندما أعود إليها

وقد عجبت من نظافة الشوارع ، فليس بها قطع من الأحجار ولا أكوام من الأتجار وهي مفسولة كأن الجن قاموا بتنظيفها في الليل ، ومثل هذه النظافة لا تكون في بلادنا إلا في الطريق الذي يسلكه الشاه في يوم الجمعة للصلاة . وأخذ بعضنا يسأل البعض هل أعد ذلك خصيصاً لنا ، فأخبرنا المترجم بأن هذه هي حالة الشوارع كل يوم

وقد صدقناه لأننا لم نر علامة على الاحتفاء بنا ، فالتاس هنا ينظرون إليه ويضحكون منه مع أن الفارسيين كانوا بأمر الشاه يركعون عند رؤية السفير الإنكليزي

استرحنا في أثناء الطريق بخان لتناول فيه الغداء ، وقد دهشنا إذ أخبرنا المترجم بأن المسافة التي قطعناها هي ثلاثون فرسخاً وهي مسافة تقطعها في فارس في أربعة أيام . ولكن سرعة العربات البخارية في إنجلترا لا يكاد يتصورها عقل الفارسي في بلاده

ووجدنا السوق في القرية التي تمدينها بها خالياً من المحتسب ، والمشترون على أتم اتفاق مع البائعين

على كل حال إلا مباهاة بحسن خطها وإلا فأية فائدة من تعليق العنوان ؟

وأدهشتنا من هذه المدينة كثرة المسارة في شوارعها فانها في أيامها العادية أشد زحاماً من الأسواق عندنا في أيام المواسم . ولولا ما شهدناه من قلة اهتمام الناس بنا لقلنا إن أهل المدينة خرجوا لاستقبالنا كما خرج كل أهل طهران ليروا السفير الانكليزي يوم وصوله . قال السفير للترجم : إنى لقلة ما أرى من مظاهر الحفاوة لأ كاد أصدق أنني سفير من حقه الاكرام فانكم تدخلون في البلد خفية كأني بضاعة مهربة . فنقل المترجم هذه الملاحظة إلى الموظفين الانكليزيين فلم يفهما في بادئ الأمر ما الذي يريد السفير لجهلهم بعوائد الفارسيين ؛ فلما أفهمهما المترجم قالوا إن هذه هي عوائد البلاد وإن السفير الفارسي يقابل كأني سفير آخر

قال فيروزخان : « إذا كانت هذه هي عوائدكم فأقسم إنها عوائد سيئة فإنه لا فرق عندكم بين استقبال سفير وبين استقبال امرأة عجوز . ثم نظر إلى وقال : « أقسم يا حاجي بابا أنني لو كنت أتوقع ذلك لما قبلت أن أكون سفيراً . لقد كان حلقى لحيتي أهون عليّ من مفادرة بلادى والميشة بين الكفار . ولا بدّ لي من الانتقام من رئيس الوزارة الذي بعث بي إلى هذه البلاد حيث لا تقام حفلة الاستقبال . وإذا لم أنتقم منه فاني غير جدير إذن باسم فيروزخان

وجم الموظفين الانكليزيان وقد أزعجتهما هذه اللهجة التي يتكلم بها السفير . وفي أثناء مرورنا بالعربة أشار أحدهما إلى حديقة وقال إن هذه الحديقة إحدي متزهاتنا العامة . فقال السفير باللهجة دالة

موظفي قصره ، فركبنا إلى المكان الذي خصص للسفارة

وقد سرّ السفير من إرسال هذين المندوبين وانتظر إجراء حفلة استقباله في صباح الغد . ولذلك أعدّ ملابس الحفلة والخنجر ذا المقبض المرصع بالجواهر ليضعه في حزامه والقلبك الذي عليه الريشة المجوهرية

وقد لاحظت أن الانكليزيات لم ينفقن من النظر إلى عيوننا السوداء ووجوهنا المستديرة ، ولذلك حرصت على نظافة ثيابي وجمال منظري ، وارتديت « الطقم » وهو أجمل ثوب عندي ومشطت شعري وجمدت خصلة طويلة منه وراء أذني وهذه الخصلة يسمونها بالسافعة في فارس ، وهي من لوازم الأناقة ...

خلق لنا « فريدون » وساوى ذقوننا ، وجيء للشركسية بثوب جديد من ثياب الفرنجستانيين ولكن تفصيله على الطراز الفارسي

وأفهمنا المترجم أننا سنتبع في الاستقبال عادات بلادنا فنمشي على مهل شديد ونلقي خطاباً طويلة كثيرة وأنه سيقدمنا في الطريق بمض الأتباع ليطردوا الناس من أمامنا ، وطلبنا إليه إفهام السلطات الانكليزية ذلك

وبما رأينا في لندن ولم نكن نتوقعه أن على حوائيتها « لوحات » كثيرة لا شك أنها من مآثور القول عندهم . وعزمت عندما أتعلم اللغة الانكليزية على استظهار هذه الأقوال لكي أتمثل بها في كلامي ولكن المترجم قال لي فيما بعد إن هذه ليست أقوالاً حكيمة وإنها عنوانات للحوائيت التي هي معلقة عليها . فعجبت من ذلك وقلت إنهم لم يملقوها

المرجم كذلك استغرق في الضحك وسألنا لماذا
نفعل ذلك ؟ فقلت لأن صاحبه طبيب ، وقال الطباخ
نعم وقد شفاني

قال المرجم إنه ليس طبيباً ولكنه عمى . فقلت
ما معنى ذلك ؟ هل هناك ما يمنع الجمع بين كونه
طبيباً وبين كونه عمك

قال : « هو على كل حال ليس طبيباً ولكنه
لورد وهو من رجال السيف ولم يمار قط صناعة الطب »
وقال الطباخ : « وكيف نميز الآن بين أطبائكم
وبين اللوردات ؟ »

حار المرجم في الاجابة على هذا السؤال . والحقيقة
أن الناس متشابهون في هذه البلاد على اختلاف
أعمالهم ودرجاتهم حتى الخدم والسكانسون يلبسون
ثياباً كالتي يلبسها الأعيان والوجهاء . وقد هالنا
اتحاد الناظر فصممنا على أن نعتصم بحبل الصبر
ونفتح عيون الدهشة في وجوه الجدة

ثم نظرنا إلى القصر الذي خصصه الشاه
للالانكليزي لسكنى السفارة الفارسية فقلنا إن هذا
القصر لا بد أن يكون مفتصباً من أحد اللوردات
لأن . أى إنسان لا يسمح باعطاء مكان مثله عن طبيب
خاطر . وإنه ليخيل لى أن الأثاث أغلى كثيراً من
البناء . وقد سألنا المرجم عن قدم هذا القصر
فقال إنه اللورد أمين الخزانة . ولست أستطيع
أن أصف الأثاث قطعة قطعة ، فان كل جزء منه
يحتاج في وصفه إلى مجلد ضخم ، فالأمرة والسجاجيد
وأدوات الزينة والدواليب والكراسى ، كل ذلك
مما لا تقع العين على مثله . وهناك أشياء كثيرة جداً
لا نعلم فائدتها ولا كيفية استعمالها
واقعد كانت الكراسى ذات أشكال مختلفة

على الغضب : « أغلقوا النافذة فاني لا أريد أن يرانا
أحد فيزداد افتضاحنا »

فلم يسع الانكليز غير الصمت

الفصل الثامن عشر

دار السفارة

نزل السفير إلى الدار المخصصة للسفارة فلم يقدم
إليه أحد هدية ولم يرحب به أحد . فعلت وجهه
مسحة من اليأس . وقال إن الشاه أمره بأن يبيض
وجهه في هذه البلاد ، ولكنه سود وجهه ووجه
الفارسيين جميعاً . وقدم له المرجم طعاماً فأبى أن
يأكله ، وقال إنه لن يأكل الخبز والملح مع الانكليز
حتى يأتي مندوب من قبل الشاه الانكليزي ليقول
له الحمد لله على سلامتكم

قال المرجم : « ولكن ألا تريد أن تعتبر لمجىء
المدوبين الانكليزيين أية قيمة ؟ فقال السفير :
« لا تقل لى ذلك فأنت نفسك حضرت حفلة
استقبال السفير الانكليزي في طهران . إنكم سودتم
وجهى وسودتم وجه حكومتكم أيضاً والحمد لله
على ذلك »

ولما رأينا على هذه الحال تركناه . واستأذن
المرجم الانكليزي كذلك في الذهاب . وكان المرجم
في الأيام الأخيرة بتغيب عنا أحياناً ليرافق رجلاً
جميل الثياب ظاهر الوجهة كان يقيم أمامنا . وقال
لنا الطباخ إنه جاء مرة مع المرجم الى دارنا . وكان
الطباخ مريضاً فوصف له دواء شفاه في الحال

اعتقدنا من ذلك أنه طبيب . وفي عصر ذلك
اليوم عاد إلينا مع المرجم فخرجنا إليه مادين أيدينا
ليجس نبضنا فخرجين ألسنتنا ليرى لونها ، فلما رأنا

الأعلى ، وإذا أردنا أن نعمل أو نستريح . ننقلنا إلى الطابق الأوسط . وقد استنتج محمد بك أن أرض بلاد الانكليز قليلة المساحة جداً ولذلك يبنون بيوتهم من عدة طبقات ، على العكس من الحال في فارس فإن أرضنا واسعة ومن أجل ذلك بنى بيوتنا من دور واحد

وقد علمنا أكثر من ذلك أنه ليس في انكلترا أرض زراعية ، وهذا يدل على شدة ضيق بلادهم فانهم يبنون البيوت حيث كان يجب أن تكون المزارع . والملكية المنازل عتدم نظام غريب فهي تنتقل بالميراث إلى الابن الأكبر ولا تقسم بين الورثة ، وأعل ذلك لضمان إصلاح المنازل وترميمها لأنه عندما يتمدد الشركاء في المنزل الواحد يتشاجرون ويركونه بغير إصلاح . أما الثياب والآه وال فانهم يقسمونها بين الورثة فهم لا يحرصون على بقائها حرصهم على البيوت لضيق أرضهم

عبد اللطيف النشار « يتبع »

عجينة فبعضها له جانب واحد والبعض له جانبان والبعض ثلاثة جوانب . وبمض الكراسي ذو ظهر يصل إلى الرأس والبعض لاظهر له . أوله ظهر قصير وهناك مناضد خاصة بالأكل وأخرى خاصة بالكتابة وأخرى للحلاقة وغيرها لفصل الوجه . وكذلك الغرف مقسمة إلى أقسام ، فالذي يأكل في غرفة النوم يكون قد أتى بأمر منكر وكذلك الذي يقتسل في غرفة النوم .

وقد حار السفير في تخصيص مكان لجاربه الشرابية .

وعلى ذكر الشرابية أقول إننا استكشفنا أخيراً أن بعض السيدات الانكليزيات بضمن على وجوههن نوعاً من البراقع ولكنه لا يحول دون رؤية الوجه بل يقي من الغبار فقط .

وقد أتبعنا في قصر السفارة أننا لانستطيع الاستقرار في مكان ، فإذا أردنا أن نأكل انتقلنا إلى الطابق الأرضي ، وإذا أردنا أن ننام انتقلنا إلى الطابق

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى المصر لموسيه ، والأوديسة لهوميروس ، ومذكرات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزئين

و ٢٤ قرشاً بدون مجلد

خلاف أجره البريد

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بألوانها الاربعة

٥٠ السنة الأولى في مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة

والخامسة في مجلدين

وذلك عدا أجره البريد وقدرها خمسة قروش

في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون

قرشاً في الخارج عن كل مجلد